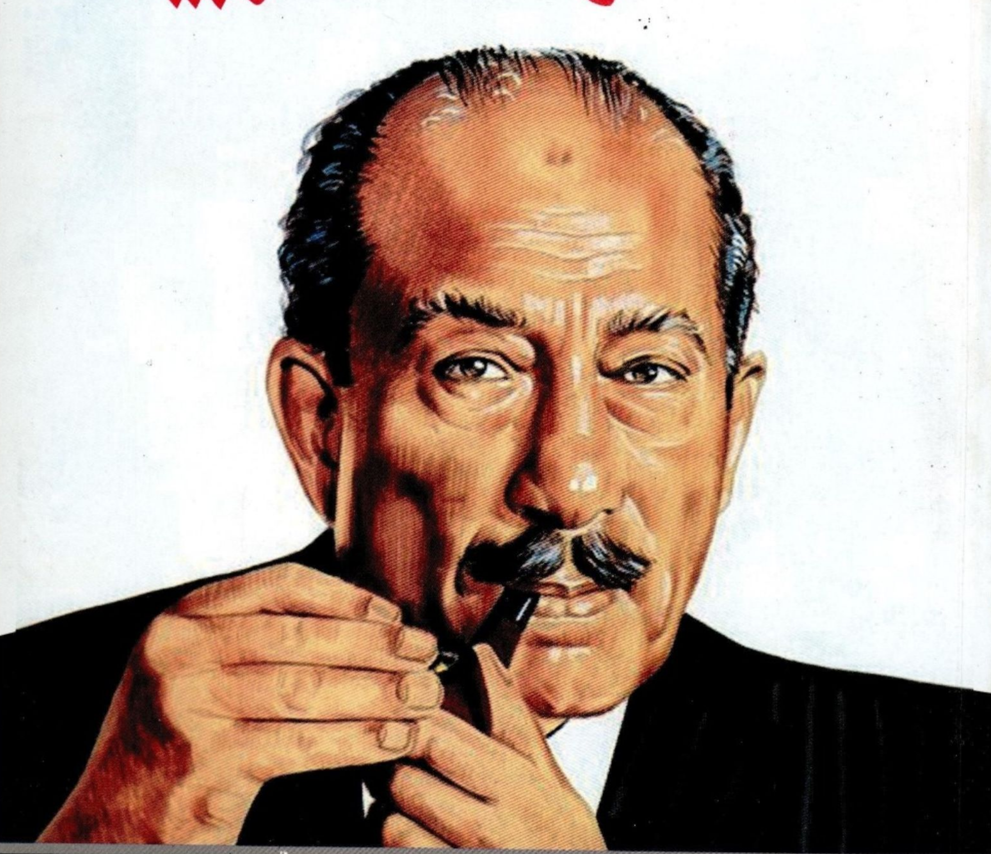
بقلم
الرئيس أنور السادات

قصة الوحدة العربية



مكتبة جزيرة الورد

أنور السادات
قصة الوحدة العربية
مكتبة جزيرة الورد

قصة الوحدة العربية

بقلم

أنور السادات

مكتبة جزيرة الورد

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتـاب : قصة الوحدة العربية

بـقـلــم : أنور السادات

* رقم الإيـداع :

* الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى ٢٠١١م

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حليم خلف بنك فيصل الرئيسي

شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

ت : ٢٧٨٧٧٥٧٤ م : ٠١٠٠١٠٤١١٥ - ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

المقدمة

المقدمة

قال الرئيس جمال في خطاب ألقاه في ذكرى ٢٦ يوليو : « إننا حينما ننادي بالقومية العربية والتضامن العربي ، إنما نهدف إلى قومية عربية حقيقية، القومية الحرة المستقلة التي تنبعث من المنطقة ، وتنبعث من ضمير أبنائها ومن أهداف أبنائها ، ولكننا لن نقبل أبدًا بأي حال من الأحوال أن نشترك في أي تضامن عربي لنخدم خطط الاستعمار أو لتحقيق أهداف الاستعمار ، ولهذا فسنستمر لمدة بدون تحقيق التضامن العربي ، لأننا لن نتضامن مع الخونة ، ولن نتضامن مع المنحرفين ، ولن نتضامن مع الذين فرطوا في بلدهم ، ومع الذين باعوا بلدهم للاستعمار .

« إننا بهذا إنما نعبر عن القومية كلها في كل بلد عربي ، ونعبر عن الروح العربية التي قاتلت دائمًا من أجل الاستقلال » .

« لقد قاتلت الشعوب العربية ، وقاتلت القيادات العربية الحرة ، وإننا بهذا نعبر عن هذه الروح : روح مقاومة الاستعمار ومقاومة مناطق النفوذ » .

لقد عبر الرئيس جمال بهذا عن مخاوف كل عربي ، بعد أن استخدم الاستعمار دائمًا التضامن العربي وسيلة يخدم بها أهدافه ومصالحه ، فالاستعمار يعرف مدى استجابة العرب وإيمانهم بالتضامن والوحدة ، ومن هنا أخذ يدفع بأعوانه لكي يحققوا أهدافه تحت ستار التضامن والوحدة !

ولم ينخدع العرب أبدًا ، حتى في أحلك الساعات . . . .

فقد كشف العرب خداع التضامن الذي كان ينادي به الملك عبد الله لسبب بسيط لم يفطن له الاستعمار ، وهو أن جميع الشعوب العربية تؤمن

عن يقين بـأن الملك عبد الله ليـس إلا أداة في يد الاستعـمار لتنفيـذ أغراض ومشيئة الاستعمار!

وكشف العـرب رياء الوحدة التي كان يـنادي بها نوري السعـيد من أول لحظة لسبب بسيط أيضًا تعرفه الشعوب العربية ، وهو أن نوري السعيد ليس إلا عميلاً لبريطانيا يحقق لها السيطرة ويحافظ لها على مناطق النفوذ !

كان العرب يعمـلون ، وكانوا يسكتون أيضًا من أجل أمل يتـشبثون به ، هو التضامـن العربي ، حتى جاءت اللحـظة التي أوشك فيها الاسـتعمار أن يأخذ برقاب البلاد العربية كلها بواسطة أعوانه .

هنـا أجاز الـعرب ، ووقـفوا يـحاربـون من أجل حـيـاتهم وحـريتـهم ومقدراتهم .

وهنا صـرخ العـرب صرخة مـدوية ، فـهم لم يرضـوا بخدمـة أهداف الاستعمار تحت اسم وستار التضامن العربي .

فالملك حسين ملك الأردن ـ مثـلاً ـ كان يرفض الانضمام أول الأمر إلى الجبهة العربية المتحررة . ولكنه عاد فجأة وانضم إلى مصر والسعودية ، ليس إيمانًا منه بالقومية العربية ، وإنما كوسيلـة يستتر خلفها وهو يسلم نفسه وبلاده لاستعمار الدولار الجـديد تحت ستار التضامن العربي ، كمـا كان يعمل جده الملك عبد الله من قبل خداعًا وتضليلاً .

لقـد كان الملك حـسين يعلن عـن حماسـه للتضـامن العربـي ، وينادي بالوطنية الفوارة ، في نفس الوقت الذي كان يتـآمر فيه مع أمريكا ضد شعب الأردن وضد حريـة الأردن ، وضد التضامن الـعربي ، وضد الدول العـربية المتحررة .

إن انضمام الملك حسين إلى الجبهة المتحررة ، لم يكن إيمانًا منه بالتحرر ولا لإقامة التضامن العربي ، وإنما من أجل تفتيت الجبهة العربية المتحررة لحساب أمريكا .

فقد رضي أن يقوم بدور صنيعة أمريكا ليفسد ما بين السعودية وسوريا ومصر .

وتطوع بحماس لكي يشترك مع أمريكا في الخطة التي تقول بعزل مصر .

كل ذلك نظير تعهد أمريكا بحمايته وإعطائه الأموال التي يطلبها لينفقها على أهوائه وملذاته .

وأكثر من ذلك ، فقد حقق حسين أهداف بن جوريون ، حينما خرج على التضامن العربي الحر وأخذ يكيل الاتهامات لمصر وسوريا ، وقد أصبح واضحًا اليوم لكل عربي أن أهداف أمريكا هي نفس أهداف إسرائيل .

وهكذا أصبح الملك حسين ليس صنيعة لأمريكا فقط ، وإنما صنيعة لأمريكا وإسرائيل في نفس الوقت !

وهكذا تتحقق حكمة الأجداد والأبناء !

ففي سنة ١٩٥٠ كان سمير الرفاعي هو رسول الملك عبد الله في مفاوضات الصلح مع إسرائيل . هذه المفاوضات التي لم تتم بسبب مقتل الملك عبد الله . ويشاء القدر أن يلعب سمير الرفاعي دور الخيانة نفسه سنة ١٩٥٧ مع الملك حسين حفيد الملك عبد الله في المفاوضات مع أمريكا خالقة إسرائيل وصاحبة الاستعمار الجديد في الشرق الأوسط .

إن العرب لن يسكتوا اليوم كما كانوا يسكتون في الماضي ، بعد أن تيقظت القومية العربية وفرضت وجودها في هذا العالم .

ولن يقبل العرب أن تستخدم القومية العربية ستاراً لأعوان الاستعمار يحققون من خلفه أهداف الاستعمار .

ولن نعود نحن العرب أبداً إلى الوراء .

ولن ننكص في سيرنا نحو أهدافنا ، ولن نجامل ولن نخادع ، وإنما سنمضي في الطريق الوحيد الذي صنعته قوميتنا العربية وسنظل نكشف خيانات أعوان الاستعمار ووسائلهم حتى تحين الساعة . . .

وعندئذ سيلاقون الحساب .

أنور السادات



القائمقام أنور السادات

الفصل الأول

الوطنية المصرية والقومية العربية

صوت مصر
صادر من أعماق شعوب العرب

مصر وشقيقات مصر يواجهون جميعًا ـ اليوم ـ خطرًا واحدًا ومصر ـ اليوم ـ حين ترفع صوتها منادية شقيقاتها بالتكتل والتعاون ، والوقوف جنبًا إلى جنب لمواجهة ذلك الخطر ، إنما تفعل ذلك لأنها حريصة على أن تمنع فى هذه المرة المأساة الكبرى التي ظلت تعصف بالعرب منذ أطل عليهم النفوذ الأجنبي ، ومنذ تحكم في مصائرهم ذلك النفوذ !

إن مصر بموقفها الراهن من الخطر الذي يهدد كيان الأمة العربية إنما تناضل نضالاً تاريخيًا ، لتخليص منطقة الشرق الأوسط من كل نفوذ أجنبي، فتصبح منطقة يسودها الرخاء والسلام والأمن ، يملك أبناؤها على اختلافهم مواردها ويسيطرون كأصحاب كل الحقوق في ديارهم ـ على سياستها ، ويوجهون كأصحاب كل الحقوق ـ دفة أمورهم بما يتفق ومصالحهم ، لا مصالح ذلك الأجنبي الدخيل الذي يتعامل مع العرب باعتباره سيدًا والعربي واحد من أتباعه !

لقد ولى ذلك العصر الذي كنا فيه نحن العرب ذيلاً للأقوياء ، نمضي خلف موكبهم بلا إرادة وبلا هدف ، كأننا قطيع من الأغنام نساق إلى حيث يشاء ذلك القوي المتطفل على بلادنا ، العامل دومًا على تحقيق مصالحه هو ، واستغلال مواردنا وإمكانياتنا وكل ما نملك ، كلما أراد ، مستغلاً ضعفنا وتفككنا ،وعدم قدرتنا على مقاومته ، ومستغلاً أيضًا ضعف ذلك الجيل من السياسيين العرب المتحالفين معه ، والمتآمرين على مصالح مواطنيهم ، سواء

عن عمد أو عن جهل وربما حبًا في الخنوع ورغبة في الاستسلام .

وكان يمكن ألا تقف حكومة مصر بعد ذلك الموقف التاريخي المجيد من كل خطر يهدد وحدة الأمة العربية ، ويعصف بمصائر الخمسين مليونًا من أبناء هذه الأمة في منطقة الشرق الأوسط ، لو لم تقم في مصر ثورة ويتولى زمام الأمر فيها جيل سياسي جديد واقعي يؤمن بالقومية العربية والوطنية المصرية ، ويعمل ليله ونهاره منتهجًا سياسة لا تخرج عن هذين الإطارين !

أقول : كان يمكن أن تتهاوى مصر وتستسلم وتسمح بتحطيم القومية العربية ، لو كان يحكمها ذلك الجيل من السياسيين المستضعفين الذين ترهبهم وتفزعهم رؤية قبعة ذلك الأجنبي الرابض في أراضيهم !

لكن مصر ـ اليوم ـ بعد أن تحررت من عوامل الضعف في داخلها وبدأت تبني أسسًا جديدة لسياستها الداخلية والخارجية ، أصبح من المحال عليها أن تضعف أو تستسلم ، لأنها لو ضعفت أو تهاونت كما كانت تضعف وتتهاون دومًا في الماضي فإن الخطر لن يعصف بها وحدها بل بالشقيقات العزيزات أيضًا .

فنحن هنا في هذه المنطقة الهامة جدًا من العالم . . . منطقة الشرق الأوسط ـ قد ارتبطت مصائرنا تمامًا كأمة واحدة تربط بيننا اللغة والدين والتقاليد والحدود المتشابكة ، فمصيرنا إذن واحد في النهاية !

وأريد أن أقول : إن مصر قد درست في اهتمام زائد ـ أخيرًا ـ السياسة العربية في هذه المنطقة من الشرق الأوسط . . . . وكانت دراسة شاملة عميقة اعتمدت على الواقع والتاريخ ، فاستمدت اتجاهاتها من مآسي الماضي ودروس الماضي ومحن الماضي !

درست مصر ـ إذن ـ السياسة العربية وعلاقاتها بالعالم العربي ، بواقعه وبظروفه ، وبأهدافه ومصالحه .

ثم درست أيضًا علاقات هذا العالم العربي بالكتل المختلفة ، وذلك بعد أن درست ميثاق الضمان الجماعي ، واستعرضت مصر خلال دراستها هذه كل المآسي التي حلت بالعرب كأمة نتيجة للسياسات المتناقضة ، التي لا تستمد أصولها من الواقع أو التاريخ والتجارب العديدة على مر السنين !

ثم أقول : إن مصر بعد أن تمت دراستها تلك قررت أن تبلور سياستها هي، وتحددها تحديدًا واقعيًا واضحًا ، وانتهت ـ أي مصر ـ إلى جعل تلك السياسة داخل إطارين لا تخرج عنهما :

الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، بحيث لا يظهر تناقض بينهما ، وبحيث لا تكون مصلحة مصر ،وسلامتها ومصالحها عاملاً من عوامل إلحاق الضرر بمصالح وسلامة دولة عربية أخرى .

على هذا الأساس الذي شرحته رسمت مصر سياستها العربية ، ثم قررت أن تعمل في الحال وعلى المكشوف في حدود تلك السياسة الجديدة التي قررتها حكومتها الوطنية الثائرة .

وكان السجل الكامل لسياسة مصر والذي وضعته بين أيدي حكومات العرب يتلخص في هذه النقط :

أن الأمة العربية خرجت من الحرب العالمية الأولى بحفنة من الوعود حصلت عليها من بريطانيا ، وسرعان ما نسيت بريطانيا وعودها بعد انتصارها .

وبدلاً من أن تحصل الدول العربية على حريتها واستقلالها وكل حقوقها

كما كان متوقعًا بعد تلك الوعود ، بقيت قوات بريطانيا تحتل مصر والعراق والأردن وفلسطين ، وأعطت بريطانيا سوريا ولبنان لصديقتها وحليفتها فرنسا .

وجاهد العرب وكافح العرب وقتل العرب وبقى الاحتلال !

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . . . . وتعاون العرب مع دول الغرب كما هو معروف ، تعاونوا بكل ما يملكون من موارد وخرج العرب من الحرب المذكورة بنفس الحفنة من الوعود .

ومرة ثانية كافح العرب وناضل العرب وقتل العرب وبقى الاحتلال .

الغرب يريد تحقيق مصالحه

واليوم والعرب في طريقهم إلى تحقيق أمـانيهم ومطالبهم المشروعة والتي كافح مـن أجلها آباؤهم وأجـدادهم ، ليتخلـصوا من الاحتلال الـذي يعطل نهضـتهم ، يجب عـلينا أن نرجع إلى الوراء لـنستعـرض ـ جميعًـا ـ المآسي التاريخية التي مرت ببلادنا ، حتي يمكننا وضع خطوط عريضة سليمة واضحة للمستقبل ومن أجل ذلك دعت مصر كل الـعرب إلى التمسك بميثاق الجامعة العربية روحًا قبل التمسك به نصاً .

ودعت مصر كل العرب إلى التشبث بميـثاق الضمان الجماعي روحًا ونصًا أيضًا ، وبهـذا فقط يكون للأمة الـعربية القوة والـقيمة والرهبـة ، فلا تكون مجرد مجموعة من الدويلات الصغرى المتنابذة المتنافرة المنقسمة على نفسها .

فإننا وهذا حالـنا ـ اليوم ـ يمكن ابتلاعنا دويلة فـي إثر الأخرى ، ومصر تدعو العرب أن يمضوا ـ جميعًا ـ في طريق واحد ، فـينتهجوا سياسة خارجية واحدة ، لأن المعسكر الغربي يهمه أن يسيطر على شعوب هذه المنطقة ليحقق مصالحه ، أما مصالحنا ، فلنرجع إلى سجل مـآسينا التاريخية لنعرف أنها بعد أن تسيطر دول الغرب عـلى شعوبنا سوف تتحول هذه المصـالح إلى حفنة من الوعود المعسولة البراقة !

وذلك سيحدث إذا ما واجهنا الغرب متفرقين منقسمين على بعضنا !

كما حدث بعـد الحرب العالمية الأولى ، وبعد الثانيـة أيضًا ، فإن الغرب استغل انقسامنا وتفرقنا وتنافسنا ليضرب ضربته فيصرعنا ، وقد كان ، وابتلع الغرب دولة في إثر الأخرى ، ووزع على بعضه الغنيمة . . . أي أمتنا !

أما إذا تكتلنا وانتهجنا سياسة خارجية موحدة واضحة مستمدة من واقعنا وتجاربنا وتاريخنا ، فإننا كأمة عربية متحدة نستطيع مواجهة الغرب ، ونحن كتلة واحدة ، فيعجز - في هذه الحالة - عن ابتلاعنا دولة وراء الأخرى ، ولا يمكنه أبدًا السيطرة علينا والبطش بمصالحنا !

إن مصر تعلم أن هناك ضغطًا واقعًا على حكومات بعض الدول العربية، وتعلم أيضًا أن هناك تهديدات لتلك الدول ، وأيضًا تعلم أن هناك وعودًا براقة وترغيبًا ملحًا لكي تخضع كل دولة منها على حدة .

فإذا استمعت الدول العربية إلى نداء مصر للتكتل وتوحيد السياسة والتشبث بميثاق الضمان الجماعي وميثاق جامعة الدول العربية ، إذا استمعت هذه الدول لذلك النداء الصادر من أعماق الشعوب ومن قلوبها فإن أي تهديد أو ضغط أو وعد معسول براق ، لا يمكن أبدًا أن تكون له قيمة ما ، إلا قيمة الورقة التي سطر عليها !

لن نسلم للغرب أو للشرق

إن العـرب الأشقاء يقـفون ـ اليـوم ـ بين الشـرق والغرب لسنـا مع هذا المعسكر أو ذاك ، ومن المحال أن نسلم في سيادتنا فنـفقد قوميتنا ومصالحنا ، إذا ما قررنا التكتل وانتهاج سياسة عربية خارجية موحدة .

لكن ما دمنا منقسمين ومختلفين ومفككين فإن الكتلة العربية تصبح خيالاً لا ظل له من الحقيقة ، وفي هذه الحالة ستسلم الدول العربية برغبتها أو رغمًا عنها بما يملى عليها .

وعلى هذا الأسـاس نادت مصر كل الحكومـات العربية ، وقالـت مصر لهم: انسوا المـاضي وخلافات الماضي وابدؤوا عهـدًا جديدًا في تطبيق مـيثاق الجامعة العربية حتى لا تتكرر مآسيكم العديدة التي حدثت في الماضي .

وابدؤوا عهـدًا جديدًا وطبقـوا ميثـاق الضمان الجـماعي العربي ، كـما وضعتـموه ، فإنه لا يزال ـ حـتى اليوم ـ حبـرًا على ورق ، فإن فعـلنا هذا فسيـثق كل منا في نفسه ، ثـم في الآخرين ، وستفشـل كل المحاولات التي يبـذلها الـغرب للـسيطـرة علينـا ، وجرنا إلـى شبكـة أحلافـه ، دولة وراء الأخرى، فلدينـا ميثاقنا الجمـاعي ، لدينا السلاح الذي ندافع به عـن أنفسنا وعن قوميتنا ومصالحنا ، فلماذا نلـجأ إلى غيرنا ، وهذا الغير كما هو واضح لكل شعوبنا تتعارض مصالحه مع مصالحنا ؟

إن مصر عـندما تقف في وجه هـذا الخطر الداهم هذا الموقف الـتاريخي المجيد ، إنما تعـبر عن إرادة شعوب العرب ، وعن رغبـات تلك الشعوب ، فلماذا لا يلتزم المسؤولون العرب ـ جمـيعًا ـ نفس الموقف ، فلا نتحدى إرادة

شعوبنا ، ونمزق شمل وحدتها من أجل مصالح الغير ، وهي ـ كما قلت ـ تتعارض مع مصالح شعوبنا ؟

وقد اجتمع رؤساء حكومات العرب في القاهرة ليحددوا موقفهم من شعوبهم ، وهل هم مع الشعوب أم مع أعداء تلك الشعوب ؟

إن مصر في خلال تلك الاجتماعات كانت تضع قدميها على أرض صلبة ثابتة ، كان موقفها واضحًا جدًا .

كان صوت مصر يدوي في تلك الاجتماعات معلنًا أن لا أحلاف عسكرية مع تركيا التي لا تملك هي نفسها مصيرها والتي تتبادل المعونة مع إسرائيل . . . عدوة العرب والخنجر المغروس في قلب الشرق الأوسط .

ومضى صوت مصر يعلن الحقائق في تلك الاجتماعات ، ومضى صوت مصر يشرح الموقف ، وكل كلمة قالتها مصر إنما هي صدى لما يتردد في أعماق كل الشعوب العربية . ومصر إنما حددت موقفها هذا من الأحلاف وهي تؤمن أن كل عربي في كل قطر من أقطار العرب يقف نفس الموقف .

فلماذا ـ إذن ـ تقف بعض حكومات العرب موقفًا يخالف موقف شعوبها، ولحساب من تتخذ تلك الحكومات هذا الموقف وما هي نتيجة تحدي مشاعر الخمسين مليون مواطن في هذه المنطقة ؟

إنني أقول للملايين العربية : إن مصر تناشدكم الوقوف كما أنتم ، صفًا واحدًا لمواجهة الخطر الداهم الذي أطل على الشرق الأوسط .

مهزلة المهازل

قلت : إن مصر حددت سياستها العربية داخل إطارين ومن المحال إخراجها ـ أي هذه السياسة ـ منها :

أولاً : الوطنية المصرية .

ثانيًا : القومية العربية .

ووضعت مصر ـ كما قلت ـ السجل الكامل لهذه السياسة الواقعية الجديدة بين يدي حكومات الدول الشقيقة .

وقالت مصر للشقيقات : «لا أحلاف أجنبية فعندنا ميثاق الضمان الجماعي ، وما علينا إلا أن ننفذ نصوصه بالتحديد فوراً فنتحرر من سيطرة النفوذ الأجنبي علينا فوراً أيضًا » .

وكنا ملتزمين حدود الصراحة التامة في توضيح الموقف هنا في الشرق الأوسط ، وعرفت حكومات العرب ألف باء السياسة المصرية العربية في عهد ما بعد فاروق .

عرفت ـ مثلاً ـ أن مصر ناضلت منذ قامت الثورة نضالاً مستمراً وصمدت عند موقفها وهي في سبيل حل قضية البلاد الوطنية ، فرفضت الأحلاف العسكرية كثمن لحل القضية ، ولم تقف جهود دول الغرب عند حد، فمضت تلح على الثورة لكي تقبل هذا الوضع .... قالوا : «لتوقع حكومة مصر حلف الشرق الأوسط ، وإلا فلن يتم الجلاء عن قنال السويس»

ولم توقعه حكومة الثورة ، بل كان ردها على هذه المساومة قاطعًا وحاسمًا .

وفوجئ الغرب بهذا الموقف العجيب من حكومة عربية لا تملك القوة التي تجعلها تتحدى الغرب وترفض التعاون العسكري معه بل وتهدد بإثارة حرب عصابات في منطقة قنال السويس .

هنا ظهرت حقيقة كبرى على المسرح السياسي في منطقة الشرق الأوسط ، وهي أن دول الغرب لما تأكد لها أنه قد ظهرت في الشرق الأوسط حكومة تقف إلى جوار شعبها وتعده بخوض معركة مسلحة يشترك فيها الجيش جنبًا إلى جنب مع الشعب ، بل وتستعد فعلاً وتعد الجيش والشعب لهذه المعركة - أقول - هنا تراجع الغرب ؛ لا لأنه خاف من حرب القنال الوطنية فقط ، بل لخوفه من امتداد تلك المعركة الوطنية المسلحة إلى عمان وبغداد وكل قطر متاخم للقنال فيه قوات محتلة !

فأي انتصار للشعوب العربية أقوى من هذا ؟ وأي تغيير هائل هذا الذي طرأ على الموقف السياسي في الشرق الأوسط ؟

إنه وعى الشعوب العربية التي وقفت في وجه الأحلاف ، منذ أطلت بشبحها عليهم ثم خاضت معارك عديدة في سبيل تحطيمها ، وموقف الشعب المصري من مشروع صدقي - بيفن - الذي نص على الدفاع المشترك ، إن موقف الشعب المصري من ذلك المشروع كان صارمًا وحاسمًا فلم توقعه حكومة صدقي خوفًا من ثورة الشعب وكان قد تحرك فعلاً ليثور في ذلك الوقت .

وفي العراق وقف الشعب العراقي الباسل نفس الموقف من اتفاقية جبر - بيفن - فلم تتم المساومة .

وفي كل بلد عربي كان الشعب يلعن الأحلاف ، ويهتف من أعماقه بسقوطها ، وبسقوط كل حكومة تتحرك لتوقع حلفًا عسكريًّا .

وفي لبنان وسوريا والعراق وقفت الشعوب العربية بكل عواطفها مع شعب مصر أيام محنة صدقي ـ بيفن .

وكذلك قامت الشعوب العربية بنفس التأييد لشعب العراق الباسل وهو يناضل ليحطم مشروع جبر ـ بيفن ـ .

فكيف انبعث ـ إذن ـ هذا الوعي العظيم في أعماقنا نحن الشعوب العربية؟

إني لا أريد أن أدخل في تفاصيل ـ علمية ـ لأرد على هذا السؤال .

فالمسألة ببساطة هي أن الشعوب العربية أحست بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بالخدعة الكبرى التي كانت هذه الشعوب ضحية لها طوال أعوام الحرب ، وذلك عندما رفضت بريطانيا الجلاء عن بلاد العرب المحتلة ، تنفيذاً لوعود الحلفاء المتعددة للعرب أثناء الحرب .

بل إن الموقف الذي كان واحداً في كل البلاد المستعمرة في هذا العالم ، ففي آسيا خدع الحلفاء الشعوب بوعودهم ، فوقفت تلك الشعوب إلى جانبهم ، وهي تأمل أن تتحرر بعد النصر ، فتجلو قوات الحلفاء عن أوطانها فحاربت جنبًا إلى جنب معهم واستشهد الملايين من أبناء آسيا من أجل الحلفاء ثم انتصر الغرب وأبقى قواته في أماكنها ، ليستأنف سيطرته على آسيا .

لكن الوضع الجغرافي للبلاد هناك ، لوجود أحراش وغابات وجبال ، ولبقاء السلاح في أيدي الشعوب الأسيوية حتى بعد انتهاء الحرب ـ لوجود كل تلك العوامل ـ قامت معارك مسلحة ضد المحتلين كلل معظمها بالنصر .

وهكذا لم تحقق شعوب آسيا استقلالها إلا بالدم ، لأنها انساقت وراء وعود الغرب حتى انتصر وهنا أنكر وعوده .

المسألة إذن أصبحت واضحة المعالم تمامًا أمام شعوب العرب ، فقد عرفوا أن التحالف بين الضعفاء والأقوياء مهزلة وخدعة يستغل بها القوي الضعيف ويسوقه إلى حيث يشاء بلا ثمن ومن أجل هذا رفضت الشعوب العربية الارتباط بأحلاف ، لأنها شعرت أن مصالحها لن تتحقق على هذا الأساس .

ثم قامت في مصر ثورة لتحقق إرادة الشعب المصري ، فاكتسحت في طريقها العرش والإقطاع والأحلاف ، وبالرغم من حدوث هذا التغيير في ميزان القوى في الشرق الأوسط ، أي بالرغم من وضوح موقف مصر حكومة وشعبًا تجاه الأحلاف لم ييأس الغرب ، ولم يكف عن محاولاته لفرض الأحلاف على حكومات الغرب ، وكانت آخر محاولة هي محاولته عزل الدول العربية عن بعضها بدخول واحدة وراء الأخرى في حلف : العراق ـ تركيا ـ باكستان ـ إيران ـ إنجلترا ـ أمريكا وأخيرًا إسرائيل .

هل شهد أحد ، أو سمع أحد ،في بلاد العرب أعجب من هذا .

فنحن العرب مطلوب منا أن نوقع حلفًا مع إسرائيل ، بإرادتنا وباختيارنا!

وماذا أيضًا ؟

إن مهزلة المهازل قد ظهرت أخيرًا في بلاد العرب

إن العرب ربما كتب عليهم أن يشردوا ويجوعوا ويموتوا ، وتمتهن وطنيتهم وآدميتهم ويطردوا إلى الكهوف والعراء ، باختيارهم وعن رغبة منهم .

وماذا أيضًا ؟

ماذا وراء الحدود هناك في العراق ، إن لم تكن مهزلة المهازل ؟

وأي عون ضخم للنفوذ الأجنبي في الشرق الأوسط يمكن أن يناله الغرب

أكثر مما أعطاه اتفاق نوري ـ مندريس ؟

إن الغرب لم يكن يأمل في أكثر من هذا ، في دق أول مسمار في كيان الأمة العربية ، ثم تتوالى بعد ذلك المسامير .

وهنا يتحقق للغرب هدفه باختيارنا وعن طواعية وكرم حاتمي جدًا !

ويكون الحلف الذي رفضته مصر وأصرت على رفضه ، حكومة وشعبًا، قد حاز القبول لدى دولة عربية فيها قوات محتلة ، أي خطر قائم فعلاً داخل الحدود ، وليس وراء الحدود ، وفي هذه الحالة تعزل الدول العربية التي ارتبطت بميثاق جامعتها ، عن شقيقاتها واحدة وراء الأخرى ، فينهار البناء الذي تريد مصر أن تجعل منه قوة فعالة ظاهرة لها قيمتها وكيانها القومي الموحد .

وهذا البناء الذي لا يريده الغرب أن يتم هو ميثاق الضمان الجماعي، فمصر قد أعلنت شقيقاتها بالخطة كاملة داخل إطارين لا ثالث لهما : الوطنية المصرية ، والقومية العربية .

وبشرط ألا تكون الوطنية المصرية عاملاً من عوامل إضعاف قضية شعب عربي آخر .

قالت مصر للشقيقات : « إننا ـ جميعًا نكون أمة عربية تشترك في الحدود واللغة والظروف والدين والمصالح ، فإذا أصبح لهذه الأمة قوة ظاهرة مستقلة وسط المنظمات العالمية على اختلافها ، وهذه القوة غير خاضعة لأي نفوذ أجنبي على الإطلاق ، مثل ميثاق الضمان الجماعي الموجود فعلاً على الورق، والذي يمكن ـ فعلاً ـ أن يصبح حقيقة واقعة في الحال ، إذ أصبح للأمة العربية هذه القوة المستقلة التي نتحكم نحن العرب فيها لا الأجنبي ، استطعنا حماية

مصالحنا من كل نفوذ أجنبي بدلاً من أن يفرض الأجنبي مصالحه علينا، ويتدخل في شؤوننا، ويمنع كل محاولة للقفز بشعوبنا نحو التقدم، فمصالحه تتعارض مع تقدم هذه الشعوب».

فالحكومة العربية - إذن - التي تنسلخ عن شقيقاتها وترتبط بحلف من هذه الأحلاف، لا يكون هدفها الدفاع عن مصالح دولتها كما تدعي، بل هي - في هذه الحالة - تعمل على تهديد مصالح شعبها، متآمرة على هذه المصالح مع الأجنبي الذي ارتبطت به!

هذا هو الموقف الآن في الشرق الأوسط، وليس هناك موقف ثان.

إننا لا يصح أن نسمح - شعوبًا وحكومات - للذين يعملون على هدم أمتنا العربية، وتفكيك وحدتها بارتكاب هذا الوزر العظيم. ولنستفيد بما يجري - الآن - في العالم داخل المنظمات والتكتلات الدولية.

ولا توجد منظمة في أي مكان في العالم تربط بين دولها روابط حقيقية في اللغة والدين والحدود والظروف مثل دول منطقة الشرق الأوسط، وبالرغم من هذا فإن عوامل الانهيار قد بدأت تظهر في بنائها، في الوقت الذي نرى فيه - مثلاً - موقف دول غرب أوروبا التي أرادت تكوين الجيش الأوروبي، فتلك الدول لا تربط بينها مثل هذه الروابط التي تربط بيننا نحن العرب! وبالرغم من هذا فإن دول غرب أوروبا لم تنسلخ إحداها عن باقي الدول وترتبط في حلف خارجي آخر رغم إرادة باقي زميلاتها، بالرغم من أنها تختلف دوامًا ولا تقف موقفًا موحدًا من تكوين ذلك الجيش الأوروبي فهو - أي الجيش - لم يتكون حتى الآن، لكن تلك الدول المطلوب منها أن تخلق الجيش الأوروبي لم يصبها اليأس، ولم تلجأ إحداها إلى جهة أخرى أو تنفصل عن بعضها.

ونحن العرب إذا كنا لم نضع ميثاق الضمان الجماعي موضع التنفيذ حتى اليوم فإن اللوم يقع علينا ، حكومات وشعوبًا !

وكما ـ قلت ـ فإن مصر قد حددت الموقف أمام العرب بصراحة ، ورسمت أمام شعوبهم وحكوماتهم الطريق الذي يحقق كل مصالحهم .

ولكي تضع مصر هذه السياسة القومية موضع التنفيذ رفضت بحزم وفي إصرار الدخول في حلف مع الغرب ، حتى لا تكون ـ أي مصر ـ عاملاً من عوامل تحطيم كيان الأمة العربية !

مصر ـ إذن ـ حريصة على خلق هذا الكيان العربي ، لا بالكلام والخطب والحفلات ، وإنما بالعمل السريع الحاسم وبالواقع الملموس .

إن مصر قد حصلت رغم موقفها الوطني الصريح على حقها في الجلاء؛ لأن الغرب عرف أنه من المحال ـ إطلاقًا ـ فرض حلف عسكري على حكومة الثورة ، خارج نطاق الجامعة العربية ، كما عرف أنه من المحال إقناع مصر بتحطيم كيان العرب وإعطاء دول الشرق الأوسط فريسة للأجنبي ، فإن مصر لم تقم ثورتها إلا للقضاء على كل نفوذ أجنبي يعطل تطور شعوب العرب النى تشترك مع مصر في اللغة والحدود والدين والظروف والمصالح الواحدة المتشابكة .

فإننا نحن العرب كما قلت أمة واحدة ، لنا قومية واحدة ، وهدف واحد مشترك ، هو الخلاص من السيطرة الأجنبية .

ولا توجد قوة في الوجود يمكنها أن تفرض على حكومة الثورة حلفًا أجنبيًّا غير ميثاق الضمان الجماعي العربي لأن حكومة الثورة تؤمن بأن هذا الميثاق هو السبيل الوحيد لخلق القوة المنبعثة من خارج حدود هذه الأمة !

وبين الساسة العرب اليوم من يدعي أن الدول العربية لن تحصل على حاجتها من السلاح لتدافع عن نفسها إلا إذا قبلت شروط الغرب ، أي تدخل معه في حلف خارج نطاق الضمان الجماعي ، وهذا الذي يقوله بعض الساسة العرب إن دل على شيء فعلى الفهم الخاطئ للموقف في هذه المنطقة .

فالغرب إذا ما حقق هدفه عندما توقع الدول العربية حلف الشرق الأوسط ، سوف يبدأ في انتهاج سياسة مع العرب ، ونفس السياسة سيتبعها مع إسرائيل فهي أيضًا حليفة له فمثلاً إذا أعطى الغرب لإسرائيل مدفعًا فسيعطي العرب جميعًا أي الخمسين مليونًا مدافعًا واحدًا من نفس النوع ، وإذا سمح الأجنبي الذي ارتبطنا به ـ مثلاً ـ لنا نحن العرب بطائرة فسيعطي إسرائيل نفس الطائرة .

أي إن الأجنبي الذي يعمل بعض ساسة العرب على الارتباط به سوف يضعنا نحن العرب جميعًا في كفة ، ويضع إسرائيل في الكفة الأخرى .

فانظروا إذاً يا رجال العرب ويا ساسة هذا الشرق الأوسط النهاية التي تريدون أن تضعوها لشعوبكم ، انظروا كيف أنكم تسلمون مصائر هذه الشعوب لجلاديكم .

إنكم تجعلون من إسرائيل ندًا لكم في هذا الشرق الأوسط، وإسرائيل هي عدوتكم الأولى هنا في الشرق الأوسط .

إنكم ستحكمون بالإعدام على القومية العربية ، إنكم تدوسون مقدساتكم بالنعال ، إنكم تتاجرون بمصائر الملايين المشردة في الشرق الأوسط والملايين التي ستتشرد فيما بعد ، عندما يصبح حلف الشرق الأوسط حقيقة واقعة .

وعندما لا يصبح لكم كيان عربي وعندما تتفتت الوحدة العربية ويدفن ميثاق الضمان الجماعي العربي في قبور بغداد ! فسلام على موتاكم في فلسطين ، وسلام على شعوبكم المريضة الجاهلة العارية ، وسلام على المستقبل كله .

المسمار الأول

شرحتُ موقف مصر بالتحديد تجاه الأحلاف الأجنبية ، وتحدثت عن سياسة مصر العربية ، وقلت : إن مصر تؤمن بأن السبيل أمام دول العرب للتخلص من السيطرة الأجنبية هو في ميثاق الضمان الجماعي العربي ، وليس في غيره على الإطلاق .

ففي ذلك الميثاق ضمانات لنا نحن العرب ، لا توجد في أي منظمة أخرى خارج منطقة الشرق الأوسط العربي .

في ذلك الميثاق ضمن لنا من السيطرة الأجنبية ، وبداية للاستقلال بالرأي في سياستنا الموحدة ، حتى إذا شعرنا نحن العرب بخطر يهدد مصالح شعوبنا استطعنا ـ ونحن كتلة واحدة لها كيانها المستقل ـ أن نحدد في الحال موقفنا من ذلك الخطر فنواجهه ونمحقه ، بدلاً من التهاوي أمامه والاستسلام له كما سيحدث ـ قطعًا ـ عندما نرتبط بحلف أجنبي يسيطر عليه الغرب وإسرائيل !

وأقول ـ هنا : إن بعث القوة في ربوع الأمة العربية الموحدة المرتبطة مصالحها والموحدة أهدافها ، هو ما تكافح مصر من أجله منذ قامت ثورتها .

إن ما أصابنا في الماضي من جراء سياستنا العربية المتناقضة ، والضعف الذي كان طابعنا كلما أطل علينا خطر هدد مصائرنا ، وعدم وجود كيان عربي قوي يرهب كل الأعداء ، أي ميثاق موحد خاضع في نصوصه لمصالح شعوب العرب أولاً وقبل كل شيء ،وأيضًا ما أصابنا من وجود ساسة عرب من الجيل الذي تعود الانحناء أمام الخواجات والسير في ركابهم ، كل هذا وغيره من عوامل الانهيار والذل والخنوع الظاهرة في كياننا العربي قد جعل

الأجنبي يعمل دومًا على إبقائنا كما نحن بلا كيان موحد قوي ، حتى تسهل عليه عملية افتراسنا ، وسلب حقوقنا بل إبادتنا ، بإحلال شعوب أخرى مكان شعوبنا العربية كما حدث عندما جاؤوا إلى فلسطين بشرذمة من الأفاقين المغامرين ، وفرضوهم فرضًا على الوطن العربي ، ثم استولوا على ذلك الوطن ليعيش فيه شعب غريب دخيل طارئ على الشرق الأوسط ، أما الشعب الأصيل صاحب الأرض وصاحب كل الحقوق فأين هو الآن يا عرب؟

إن إسرائيل لم تخلق صدفة ، إنما خلقت لتهدد كيان الأمة العربية وتمهد لتمزيق تلك الأمة ، وتشريد أبنائها ، وسلب أرزاقهم وإفساح الطريق أمام النفوذ الأجنبي ليمضي كما هي العادة في السيطرة على المنطقة كلها .

إنهم خلقوا إسرائيل لهذا السبب فقط ، لتكون رأس الرمح الذي يسدد إلى قلب الأمة العربية ، ليحطم وحدتها ويمزق رقعتها ، ويشيع فيها الاضطراب ، والخلافات والتناحر ، فيظل العرب كما هم ـ مشغولين ـ بخلافاتهم وتنابذهم وتناحرهم ، فلا يعملون على بعث قواهم لمواجهة الأخطار والسيطرة الأجنبية .

وكما قلت إسرائيل لم تخلق صدفة ، ففي الوقت الذي أنكر فيه الغرب وعوده للعرب بعد الحرب العالمية الأولى ، فلم نحصل نحن العرب على حقوقنا ، كما كان معلومًا أثناء قيام تلك الحرب ، وبعد وقوف دول العرب إلى جانب الغرب ، في نفس الوقت نجد الغرب قد منح الصهيونية وعدًا قاطعًا عام ١٩١٧ لقيام دولة إسرائيل ، وهو المعروف بوعد بلفور !

وتحقق الوعد ـ فعلاً ـ وقامت إسرائيل فوق جماجم أبناء الشعوب العربية والمصالح العربية ، والقومية العربية .

هذا والعرب هم الذين وقفوا إلى جانب بريطانيا وساعدوها على النصر

فكافأتهم بخلق إسرائيل . . . !

نحن العرب ـ إذن ـ لا قيمة لنا على الإطلاق في نظر هؤلاء الأجانب .

إنهم يعدوننا فقط ، أما ما بقى أي تنفيذ الوعد ، فبين ساسة العرب وزعماء العرب أقطاب تعودوا أن يخضعوا وينحنوا أمام كلمة الأجنبي وأوامره، وفي هؤلاء الساسة العرب الخاضعين المتآمرين على شعوبهم الكفاية، ليظل الأجنبي فارضًا نفسه علينا ، مقدمًا مصالحه على مصالحنا ، ناهبًا أرزاقنا ومستغلاً مواردنا .

وبعد هذا ، عندما تقول مصر لحكومات العرب ـ بصراحة ـ أن مأساتنا، ـ جميعًا ـ واحدة ، وأن عدونا واحد هو النفوذ الأجنبي ، فتعالوا نتكتل أمام المصيبة الواحدة لنخرج من نطاقها ، وعندما تقول مصر لحكومات العرب أن السبيل إلى هذا هو القوة المنبعثة من كيانها كأمة واحدة ، وعندما تقول مصر لحكومات العرب ، عندنا ميثاق الضمان الجماعي تعالوا نحوله من حبر على ورق إلى حقيقة واقعة ، ولدينا كل الإمكانيات ، وعندما تقول مصر لحكومات العرب تعالوا نحدد سياستنا الخارجية على أساس مصالحنا كعرب ، كأمة ، عندما لا تخفى مصر شيئًا من الحقائق والخطط المنبعثة من واقع حياة العرب يفسر بعض أقطاب العروبة هذا الكلام بأن يتحالفوا مع تركيا وإسرائيل ويرتموا في أحضان الغرب .

وحينما اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في ١٠ ديسمبر ١٩٥٤ ، قابل الرئيس جمال عبد الناصر وزراء خارجية الدول الشقيقة ، كل وزير منهم على حدة .

وقال الرئيس جمال لهم : إن سياسة مصر العربية تنحصر في أن وطنيتنا المصرية لا يصح أن تلحق الضرر أو تطغى على القومية العربية ، وقال لهم:

إن مصلحة مصر لا تتعارض إطلاقًا في أية ناحية مع مصلحة شقيقاتها ، بل إننا نعمل - الآن - ونحن نؤمن أن المصلحة الوطنية لشعب مصر يجب أن تسير جنبًا إلى جنب مع القومية العربي نفسها ، ثم قال لهم : « إن الخلاف الوحيد الذي يمكن أن يؤثر على كياننا العربي الموحد والذي يمكن أن يضعف من مقوماتنا ، ينحصر في وجود خلاف - أي خلاف - بيننا في السياسة الخارجية » .

وأنهى الرئيس جمال حديثه - الصريح - مع وزراء خارجية العرب بأن طلب أن تتفق الدول العربية على سياسة واحدة محددة تواجه بها العالم كله كتلة واحدة فيصعب تمزيق شملها .

وعقد وزاء الخارجية تسع جلسات ، ثم اتفقوا على السياسة الخارجية وكان الاتفاق على ما يأتي :

أ - ترتكز السياسة الخارجية للدول العربية على ميثاق الجامعة العربية ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى بين الدول العربية وعلى ميثاق الأمم المتحدة ولا تقر عقد أحلاف غير ذلك .

ب - التعاون مع الدول الغربية على الأسس التالية من غير الدخول في أحلاف عسكرية :

١ - حل القضايا العربية حلاً عادلاً .

٢ - إتاحة القوة اللازمة للبلاد العربية كي تحافظ على سلامتها وكيانها من أي عدوان بدون أن يكون في ذلك أي انتقاص من سيادتها .

ثم تحفظ العراق التحفظ الآتي :

إن العراق يحتفظ لنفسه بحق تعديل المعاهدة العراقية البريطانية على غرار

ما فعلته مصر مع بريطانيا مع إضافة إيران وتركيا في حق عودة القوات البريطانية إلى العراق .

ووافق وزراء الخارجية على هذا التحفظ .

والمفهوم من تحفظ العراق أنه سيتفق مع بريطانيا على إجلاء جنودها من «الحبانية والشيبة» .

ثم اتفق وزراء الخارجية العرب على أن يجتمعوا في يناير ١٩٥٥ ، تمهيدًا لاجتماع رؤساء الحكومات العربية ، وذلك لتنسيق هذه السياسة وتدعيمها اقتصاديًّا وعسكريًّا .

لقد خرج وزراء خارجية دول العرب من تلك الاجتماعات وهم يشعرون بالاطمئنان الشديد على الخطة العملية التي وصلوا إليها ، شعروا يومها بأن القومية العربية في طريقها - أخيرًا - إلى أن تصبح حقيقة واقعة ، بعد أن كانت مجرد خيال .

ثم بعد أن اطمأن العرب على مستقبلهم الذي حددوا برنامجه ورسموا خطوطه العريضة الواضحة ، حمل الأثير إلى آذان العرب حكومات وشعوب بيان حكومة العراق الذي أعلنت عنه اتفاقية نوري - مندريس يوم ١٢ يناير سنة ١٩٥٥ .

كانت مفاجأة للشعوب العربية كلها ولحكومات تلك الشعوب ، فها هو المسمار الأول في كيان القومية العربية تدقه دولة شقيقة ، وليس إسرائيل أو إنجلترا أو أمريكا . دولة شقيقة هي التي تحاول القضاء على هذه القومية وتبدد شمل العرب لمصالح النفوذ الأجنبي !

إن حكومة العراق لم تؤمن بمصالح الشعوب العربية فقررت أن تنسلخ

عن كيـان الأمة العربية ، مـتحدية مشاعـر كل شقيقـاتها ، ومتحـدية أيضًا مصالح شعب العراق نفسه .

وأنا أتحدث هنا كـمواطن عربي فأقول ما فـائدة ميثاق الضمـان الجماعي إذن؟ بل لماذا يبقـى هذا الميثاق المظلوم مـا دامت هناك حكومة عـربية ، وربما حكومات أخرى غيرها لا تعترف بنصوصه ، أو حتى بوجوده فتلجأ إلى غيره من المواثيق التي يسيطر عليها الأجانب وإسرائيل ؟

ولماذا لا يلغى هذا الميـثاق العربي ـ في الحال ـ مـا دام لا يساوي في نظر بغداد وغيرها من عواصم العرب قيمة الورقة التي سطر عليها ؟

إنني كما أقول أتساءل كمواطن عربي فقط لأني أريد أن أعرف ـ كمواطن عربي ـ الموقف بالتحديد ، فالمسـألة لا تخـص العـراق أو بيـروت أو دمشق أو القاهرة ، بل تخص خمـسين مليونًا أنا واحد منهم ، يعيـشون في منطقة الشرق الأوسط ، ويتكلمون لغة واحدة ويعتنقون دينًا واحدًا ، ومصيرهم في الحاضر والمستقبل واحد ، لأن لهم قومية واحدة .

إن كل واحد من الخمسين مليون عربي هنا في الشرق الأوسط ، يتساءل مثلي عن سر بقاء ميثاق الـضمان الجماعي ـ حتى الآن ـ على الورق ، ولماذا لا يصبح حقـيقة واقعة ـ في الحـال ـ أو يلغى في الحال ، فيتـحدد بعد ذلك موقف كل حكومة عربية من مصالح شعبها ومن مستقبله ؟

أما مصر فإن موقـفها لن يتغير ، فهي ستقف كـالعملاق هنا في الشرق الأوسط لتـقاوم بكل مـا تملك من قـوة وإيمـان الأحـلاف ،حتى لا يتـمكن الأجنبي منا مرة ثانية ويجعلنا عبيدًا له وهو السيد المطاع .

إن مصر ستصمـد ولن تغير من موقفها كما صمـدت أمام الغرب عندما أراد فرض حلف الشرق الأوسط على حكومة الثورة كثمن للجلاء .

وكان النصر في النهاية لحكومة الثورة ، لأنها كانت تستمد موقفها ذلك من إرادة الشعب المصري .

وكل حكومة عربية أصبح يتحتم عليها أن تضع أمامها مصلحة شعبها أولاً ، قبل أن تضع في حسابها مصلحة إسرائيل وتركيا وباكستان وإيران وإنجلترا وأمريكا إلى آخر القائمة التي لا تتضمن ـ إطلاقًا ـ مصلحة واحدة لأي عربي في الشرق الأوسط .

فإذا أردات حكومة من حكومات هذه الدول العربية ، أن تتخلى عن شعبها ، وترتمي في أحضان الغرب ، فلتحدد موقفها ـ إذن ـ في الحال هل هي مع العرب أم مع إسرائيل ؟

ثم ليمزق ميثاق الضمان الجماعي العربي في الحال أيضًا ويترك الأمر بعد ذلك للشعوب العربية نفسها ، فهي في هذه الحالة ، تصبح مسئولة عن حماية مصالحها ، بعد أن تخلت الحكومات عنها .

وبعد ذلك سلام على شهداء فلسطين وسلام على القومية العربية ، وسلام على مصالح العرب وأرزاق العرب ومستقبل العرب !

مدرسة الخيانة

منذ بدأت تفوح في الجو رائحة الخيانة التي أقدم عليها نوري السعيد بجرأة هذه المرة لأنه أعلنها ، وكان من قبل يرتكب خياناته ولا يعلنها بمثل هذه الجرأة ، أقول منذ فاحت هذه الخيانة وأنا أتحرق لكي أعود مواطنًا غير مسئول حتى أستطيع أن أقول كلمتي بصراحة من غير أن أحرج أحدًا أو أن أسيء إلى وضع ، ولكن شاء السيد نوري السعيد أن يعفيني من هذا الحرج بتصميمه على المضي في خياناته إلى آخر الشوط .

لقد نكبت شعوبنا بالاستعمار والانقسام والاختلاف وشهوات الأنانية وحب الذات وعشرات الشهوات الأخرى بفعل مدارس الخيانة التي قامت في داخل شعوبنا على يد أبناء من هذه الشعوب ، قامت هذه المدارس أساسًا على أيدي أبناء من شعوبنا كما قلت يصفون أنفسهم تارة بالواقعية وطورًا بالأفق الواسع لكي يبشروا بين مواطنيهم بمبادئ جديدة للوطنية هي الخضوع والتسليم للمستعمر الغاصب لأننا ضعفاء ولن نستطيع أن نصل إلى قوة هذا الغاصب وإذن فلابد من مصادقته ، ولكي يبرروا هذه الصداقة لا يمنع الأمر أن يصفوها في تبجح صداقة «الند للند» لكي يضللوا الشعوب بالألفاظ في الوقت الذي يقتلون فيهم كل روح للمقاومة أو العزة أو الكرامة ، لقد بلونا هذه المدارس في مصر هنا قديمًا وحديثًا .

فلم تزل خيانة توفيق «خديو مصر المشهور» ترن في كتب التاريخ وعلى أرض هذا البلد الأمين .

استمع معي إلى البيان الذي أصدره توفيق لكي يستعدي أعداء البلاد على

أبنائها ، وينذر بشديد العقاب لكل من يقاوم الإنجليز في احتلالهم أرض الوطن .

إنه يقول بالنص في منشوره :

« ليكن معلومًا عند السلطات الملكية والعسكرية في منطقة قناة السويس أن أميرال الأسطول الإنجليزي وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها ، ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يريان في احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ، ومن خالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب » .

وتبع هذا البيان أن قام مواطنون مصريون من مدرسة توفيق الخائنة بالتقدم أمام الجيوش البريطانية الظافرة لكي يبشروا في الناس برسالة هذه الجيوش التي باركها أفندينا ولي النعم ، وإنها إنما جاءت لكي تنشر الأمن والعمران في ربوع البلد الأمين .

نعم .... كان الذين يبشرون بهذه الخيانة أمام الجيش الإنجليزي المغتصب مواطنون مصريون بل ومن الريف وأعيانه الذين ما لبثوا بعد ذلك أن قبضوا ثمن هذه الخيانة من زعيم مدرستهم توفيق آلاف الأفدنة لكل واحد منهم ، أما بقية الشعب فقد تركوا لمصيرهم الأسود اثنين وسبعين عامًا كاملة قتل فيهم من قتل وشرد فيه من شرد ، وجاعوا وتعروا وجهلوا ، وأصبح رجال مدرسة الخيانة وأبناؤهم من بعدهم هم السادة الأغنياء الذين ينعمون بخيرات الأرض والجاه والسلطان في ظل أفندينا ومن توارثوا ملكه من بعده .

كل ذلك مثلاً من أمثلة مدرسة الخيانة في الماضي التي جلبت على هذا الشعب لعنة ظلت تطارده اثنين وسبعين عامًا .

وحديثًا وقف رجل ومواطن مصري هو القتيل أمين عثمان يخطب في حفل كلية فيكتوريا الإنجليزية سنة ١٩٤٠ حينما كانت كل البلاد تصرخ من أقصاها إلى أقصاها بالكراهية لإنجلترا وترفض دخول الحرب معها وتصر على سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب ، أقول وقف أمين عثمان وسط كل هذا يخطب في حفل كلية فيكتوريا ويقول في بجاحة أنه يشبه إنجلترا ومصر بالزوجين وشاء له خياله الخائن أن يصف هذا الزواج بأنه زواج كاثوليكي لا انفصام له أبد الدهر ، ثم أمعن في الخيانة فقال : «**حتى لو تركتنا إنجلترا وهي الزوج فلن تتخلى عنها مصر وهي الزوجة بل تسير وراء إنجلترا إلى آخر الأرض** ... ».

لم يكتف بهذا بل قام يبشر علنًا وعلى رؤوس الأشهاد بهذه الخيانة فيما أسماه « رابطة النهضة» التي أسسها لتكون حزبًا ينادي بهذه المبادئ ويبشر بين المواطنين بها بمنطق عجيب هو المنطق الأزلي لمدرسة الخيانة التي تقول إننا ضعفاء وأنى لنا بالأساطيل والدبابات والمدافع التي لبريطانيا أننا لن نستطيع أن نملكها ، وإذن فمن الخير لنا أن نصادق بريطانيا . . . وفي بجاحة أيضًا « صداقة الند للند » . .

كنت أسرح بخيالي في هذا التاريخ البعيد والقريب وأنا أستعرض كلام نوري السعيد على لسان مندوبه الذي أرسله بعد أن جبن عن مواجهة المجتمعين من رؤساء حكومات الدول العربية .

قال هذا المندوب وهو الدكتور فاضل الجمالي في أول جلسة حضرها وهي الجلسة الثامنة بعد أن سمع تلخيص ما دار في الجلسات السابقة والقراءات التي تم الاتفاق عليها :«إن سياسة العراق تتلخص في ثلاث نقاط :

الأولى : تحرير العرب ووحدتهم .

والثانية : سلامة العراق والمحافظة على صداقتنا مع جيراننا .

والثالثة : وهي التي تتعلق بسياستنا الدولية فقد كانت سياستنا دائمًا إيجابية مع الغرب وهذه هي سياستنا المثلثة » .

ثم تابع كلامه ، واستمع معي جيدًا إلى ما يقول :

« وأن العراق مستعد للمساهمة في معاهدة الدفاع المشترك العربي على الدوام ، ولكن علينا أن نكون واقعيين فهذه المعاهدة لا تفيدنا في الدفاع عن حدود العراق الشمالية الشرقية ، ولذلك؛ فإننا ملزمون بالتفاهم مع الغرب للحصول على العتاد وكذلك التفاهم مع جيراننا لتنسيق الخطط » .

« وقد اتصلنا بأمريكا منذ سنتين لطلب سلاح ولكن الضغط الصهيوني حال دون ذلك . وعندما سافرت في العام الماضي لأمريكا جددت الطلب وكدنا نصل إلى اتفاق ولكن الصهيونية نجحت في تعطيله وعندئذ أرسلت خطابًا إلى مستر دالاس وذكرت فيه أن العراق حريصة على أن تقف مع الغرب ضد الشيوعية » .

ثم يمضي بعد ذلك في صراحة غريبة قائلاً :

« وبعد ذلك رأينا ضرورة تنظيم الدفاع عن بلادنا خاصة وأن المعاهدة العراقية البريطانية ستنتهي قريبًا وبموجب المعاهدة الحالية فإن بريطانيا عليها أن تساعدنا في الدفاع عن حدودنا ولكن إذا انتهت هذه المعاهدة فسنكون وحدنا للدفاع عن بلادنا » .

ثم تأتي بعد ذلك روعة الخيانة سافرة مجلجلة فقد سأل دولة توفيق أبو الهدى رئيس وزراء شرق الأردن ـ في ذلك الوقت ـ الدكتور فاضل الجمالي بعد أن امتدت المناقشة .

« ورد في البيـان : والمقصـود بالبيان هنا هو البـيان الذي صـدر في بغداد وأنقرة عن حلف نوري ـ منـدريس » نص التعاون بين البلدين لصـد العدوان من الداخل أو الخـارج أو أي جهـة كانت والآن تفـضلتم بذكر أن الاتفـاق لا يخرج عن تبادل معلومات ومرور عتـاد ، وقد ذكرت تركيا للبنان أن المقصود من صد الاعتداء من الداخل هو إسرائيل فهل يعني ذلك أن تركيا ستقف ضد أي عدوان من إسـرائيل على أي بلد عربي أم أن واجـبهم يقـتصر عـلى تبادل المعلومات ومرور القوات والعتاد ؟ ».

فرد السيد بـرهان الدين باش أعيان وزير خارجية العـراق بالنيابة حينذاك قائلاً :

« كان الأتراك مـسـتـعدين للتـعاون العـسكري إلى أبعد حـد ولكن نظرًا لارتباطـنا بالدول العربيـة وعدم رغـبتنا في قـبول أي التـزامات عسكـرية قد تتعـارض مع التزاماتـنا مع البلاد العربيـة رأينا الاكتفـاء بهذا المشـروع المبسط واستبعدنا تبادل الجيوش فإذا شئتم التوسع يمكننا أن نفعل ذلك » .

وهنا سئل :

« أفهم من ذلك أن اشتراك تركيا في صد عدوان إسرائيل يعتبر نظريًا »

وهاكم الرد يا شعوب العرب ويا شباب العرب ويا أرواح شهداء العرب.

لقد رد السيد برهان باش أعيان بالحرف الواحد :

« نعم فهو يعتبر نظريًا وغير قائم بخلاف ما جاء في البيان المشترك » .

أي إن وزير خارجية العراق لا يؤكد فقط أن اشتراك تركيا في صد عدوان إسرائيل إذا هاجـمت دولة عربية ليس نظـريًا فـقـط ، وإنمـا هـو يكذب أيضًا ما أصدره رئيسه نوري السعيد في هذا البـيان المشترك الذي بشر العرب باتفاق

نوري - مندريس ويقرر أن الحقيقة خلاف ما جاء في هذا البيان .

أو بصريح العبارة يقرر سلامة إسرائيل ومجدها الذي لن يمس بعد أن أصبح نوري حليف حليفة إسرائيل .

دعوني أتكلم بصراحة يا إخواني العرب ، أن أخطر ما نواجهه اليوم ليس الاستعمار وليس الفقر ، وليس الجهل ، وليس المرض ، وإنما أخطر ما نواجهه اليوم هي مدرسة الخيانة في كل شعب من شعوبنا .

لقد قضينا عليها نهائيًا في مصر وأدعوا الله أن توفقوا في القضاء عليها في أوطانكم لكي تتطهر أرضنا ومياهنا وتنمو زروعنا بعدما أصابنا التلف وخربتنا الخيانة .

الفصل الثاني

الوحدة المظلومة

الميثاق الثنائى والضمان الجماعي

ثم كان الاتفاق الثنائي بين مصر وسوريا . . .

وبإمضائه اجتاحت الشعوب العربية موجة فرح طاغية أذهلت الغرب والشرق وأوقعت الرعب في قلب إسرائيل .

فقد أحس العرب لأول مرة منذ أمد طويل بالتفاؤل في مستقبل أيامهم ، وأحس العرب لأول مرة بإرادة شعوبهم تتحقق في شكل عملي عربي خالص لا تأتيه السيطرة من حلف أجنبي ولا يأتيه النفوذ الاستعماري .

ولم تلبث إنجلترا وفرنسا أن أعلنتا معارضتهما لقيام هذا الحلف فكان انتصاراً آخر للعرب وتأكيداً لمغزاه الذي طالما نادت به شعوب العرب ولم تكن تجد إلى تحقيقه سبيلاً .

ومن بين هذه الفرحة الطاغية ، نادى مناد من العرب وقال :

« مهلاً يا قوم ، إن هذا الميثاق سيقسم العرب على أنفسهم ، وإنه إذا كان ولابد من عمل اتفاقات ، فلتكن اتفاقات تجمع الدول العربية كلها حرصاً على الوحدة العربية » .

قول في ظاهره الوحدة والعاطفة الأخوية ، وفي باطنه قصة مأساة طويلة بدأها المستر إيدن في مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٤٢ يوم أن أوعز بقيام جامعة للدول العربية فقامت .

القصة كاملة

وليعذرني إخوتي من العرب فنحن في مجال الجد ، وسأكون صريحًا بقدر ما عانت شعوبنا من الآلام ، وسأكون صريحًا كما أعلنا في سياستنا العربية بعد الثورة وقلنا فيها إننا قررنا ألا ننافق أو نخادع أو نضلل .

نعم قررنا ألا ننافق أو نخادع أو نضلل فخير للشعوب العربية ألف مرة أن نقول لهم : إن حكامكم اجتمعوا واختلفوا من أن نقول لهم : إن حكامكم إجتمعوا واتفقوا وهم أبعد ما يكونون عن الاتفاق !

فما هي إذن الجامعة العربية والوحدة العربية وميثاق الضمان الجماعي العربي المسكين وأخيرًا ما هي قصة ميثاق سوريا ومصر ، على ضوء ما أسلفت من مبادىء ؟

تبدأ القصة كما قلت سابقًا بتصريح من المستر إيدن سنة ١٩٤٢ الذي أوعز فيه بقيام جامعة الدول العربية فقامت .

وكانت الدول العربية جميعًا وقت ذاك إما تحت النفوذ البريطاني ومنها مصر ، وإما تحت النفوذ الفرنسي ومنها سوريا فيما عدا المملكة العربية السعودية واليمن .

الانقسام

وكانت سياسة كل هذه الدول الخاضعة للنفوذ البريطاني والفرنسي تسير دائمًا في خط يلتقي مع رغبات بريطانيا وفرنسا . ولذلك كانت بريطانيا سعيدة بالجامعة وفرنسا راضية عنها ، ولا يمكن أن ينكر أنها أدت للعرب خدمات معينة ، ولكنها كانت دائمًا في مجالات ضيقة محدودة .

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية ، وهبت شعوب العرب تطالب بالحرية . وبالتخلص من الاستعمار ومن سيطرته ومن نفوذه ، واستجابت حكومات وتخاذلت حكومات .

وظهر الانقسام داخل الجامعة ، ورغم ذلك كانت الجامعة تصدر قراراتها دائمًا بالإجماع !

لقد كان الاختلاف دائمًا واضحًا ، بل إن خطورته كانت تتمثل في أنه الاختلاف في التفكير والأهداف .

ورغم ذلك كانت الجامعة تصدر قراراتها دائمًا بالإجماع !

سبب الكارثة

وهنا لابد لي أن أقف قليلاً وأقول :

أن هذا الخداع الذي مثلته الجامعة على مسرح الشعوب العربية بقراراتها الإجماعية في الظاهر واختلاف وجهات نظر دولها في الباطن كان ولا يزال موطن الداء ، والكارثة التي حلت بكيان الأمة العربية تحت مسميات بريئة هي الوحدة العربية ، والجامعة العربية ، وهي نفس المسميات التي ينادي بها المنادي اليوم لكي يشغل العرب عن فرحتهم الطاغية الشاملة بالسلاح والميثاق السوري المصري .

إنني أريد أن أذكر العرب كيف ضاعت فلسطين تحت اسم الوحدة العربية .

إنني أريد أن أذكر العرب كيف ضاعت فلسطين تحت سمع وبصر الجامعة العربية .

إنني أريد أن أذكر العرب كيف هزمت جيوشهم السبعة أمام العصابات الصهيونية .

أريد أن أذكر العرب أن اندفاعنا ـ نحن العرب ـ وراء العواطف وتحرجنا من مصارحة بعضنا لبعض وإصدارنا قرارات إجماعية لا نؤمن بها ، كل هذا قد قضى على شعب عربي بأكمله بطريقة لم تحدث ولن تحدث عبر التاريخ .

وهكذا قضت سياسة المجاملة والعواطف ودفن الرؤوس في الرمال ، أقول قضت على شعب عربي بأكمله وأورثت بقية العرب الضعف وعدم الثقة في النفس .

وأعود إلى حديثي .

صراع عجيب

ضلت الجامعة السبيل إذن بعد أن اتخذت لنفسها سياسة تقوم على خداع شعوبها بالقرارات الاجماعية والمجاملة ، والخوف من أن يقال أن هناك انقسامًا .

إلى أن كانت حرب فلسطين .

وكم توالت اجتماعات الجامعة قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها وكم كانت قراراتها أيضًا تترى باتفاق دولها في كل شيء !

والتاريخ والحقيقة يقولان أن هذه الدول لم تتفق على شيء كانت الحقيقة أن في الجامعة قيادات متعددة ، ومصالح متعارضة ، ووجهات نظر متنافرة .

ثم بدأ صراع عجيب ، لم يكن ضد إسرائيل وحدها ، ولكنه كان صراعًا ذا شعبتين :

الشعبة الأولى : صراع ضد إسرائيل .

والشعبة الثانية : صراع بين الدول الأعضاء بعضهم ضد بعض .

ومن هنا ، من الشعبة الثانية ، نفذ الاستعمار بين الدول الأعضاء المتباغضة . واستغلت الصهيونية الفرصة فاستطاعت أن تنزل بالعرب هزيمة ساحقة .

ترى هل ما أقوله اليوم جديد على العرب ؟ أن كل عربي يشهد عليه !

ثم انتهت حرب إسرائيل ، وحاولنا أن نواري هزيمتنا التراب لكي نبدأ صفحة جديدة نصحح بها الماضي وما فيه من أخطاء .

فماذا حدث ؟

لقد بدأ صراع جديد ، لم يكن هدفه في هذه المرة إسرائيل وإنما كان هدفه بعضنا البعض .

وفي قاعات الجامعة العربية بدأت المهزلة من جديد .

لابد أن نخرج على الشعوب بقرارات إجماعية !

أو بمعنى أصح . إلى الخداع من جديد ونسينا فلسطين ، وكارثة أهلينا من اللاجئين ، وحتى لو أدى الخداع إلى أن تصبح الأمة العربية كلها من اللاجئين !

المهزلة

وراحت تتتابع فصول المهزلة من جديد .

واجتمعت الـدول العربية عام ١٩٥٠ وعقدت فيـما بينها ميثاقـًا للضمان الجماعي . وقـعت عليه الدول بالإجـماع كـما تقـضي سيـاسة العـواطف والمجاملة ودفن الرؤوس في الرمال .

وقعوا جـميعًا لا من أجل دوافع عـسكرية ، ولا من أجل أمن العرب ، ولا من أجل الدفـاع عن مقـدسات الوطـن العربي ولامن أجل الحـيلولة أن تلاقي أية دولة عربية أخرى مصير الشقيقة فلسطين .

ولا من أجل خلافهم مع إسرائيل ، وإنما وقعوه ليقال : إنهم متفقون ثم وضعوه على الرف ساعة أن انتهوا من توقيعه بدلاً من تنفيذه !

أليست هذه هي الحقيقة التي يعرفها كل عربي ؟

إن العرب لم يتفـقوا في جامعتهـم على شيء إلا على العواطف الجذابة والأماني الرقيقة والخيال الخلاب .

وهكذا بدأت الشعـوب العربية تحس الخطر ، وكنـا نحس نحن مثل هذا الشعـور كمـا يحسه كل عـربي كنا نشعـر أن هناك حاجـزًا يحول بين الدول العربية وبين تنظيمها لدفاعها ضد إسرائيل .

وكنا نشعر أكـثر من ذلك أن إسرائيل قد أمنت واطـمأنت إلى أن العرب في أمورهم لاهون ، وأن العرب وقد لحقـتهم الهزيمة لن يفكروا فى أنهم قد تلحقهم في المستقبل هزيمة أخـرى ، فقد نسى العرب كارثة فلسطين ، ونسوا أكثر من ذلك عدوهم الأساسي الذي اغتصب فلسطين .

وأنهم مشغولون بمشاحناتهم وخلافاتهم وأحقادهم !

الثورة

وقامت الثورة المصرية .

وقلنا للعرب : إننا لن ننافق ولن نخادع ولن نضلل .

وقلنا لهم أيضًا يجب أن ننبه الأمة العربية إلى ما هي فيه من خطر داهم وقلنا :

يجب أن يوضع ميثاق الضمان الجماعي العربي موضع التنفيذ في الحال إذا أريد لنا أن نحيا أو نعيش في سلام .

وبدأنا باتصالات عدة .

وتبينا - ويا لسوء ما تبينا - بعد هذه الاتصالات أن هناك خلافًا أصيلاً خطيرًا في وجهات النظر .

وجدنا من يؤمن أن العرب لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم إلا إذا اعتمدوا على دولة كبرى تقوم بواجب الحماية لهم وعليهم في حين أن إيماننا منذ البداية هو في التحرر من كل ألوان الحماية والوصاية التي كان يفرضها علينا من فرضوا إسرائيل وتبنوها ومزقوا فلسطين ومن عليها .

وإيماننا أيضًا هو أن العرب باتحادهم يكونون قوة تستطيع أن ترغم الدول الكبرى على أن تحس بقيمتهم وقوتهم وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ، فتتغير الموازين ، وتصبح الثمانون تساوي ثمانين لا كما هي اليوم في موازين الغرب ، أن مليونًا من اليهود الأفاقين يساوي ثمانين مليونًا من العرب المساكين !

واجتمع العرب وتداولوا ، وتباحثوا ، ثم تداولوا وتباحثوا ، ثم انفصلوا، ثم اجتمعوا مرة أخرى لينفصلوا .

وظل ميثاق الضمان الجماعي حبرًا على ورق .

صرخة جمال

وأصبح جليًا أن صراخ جمال وهو ينبه للخطر الداهم قد ذهب في واد ، لقد صرخ جمال :

* هل ستنتظرون حتى تأخذ إسرائيل المبادأة ؟

* هل ستنتظرون حتى تقع الواقعة ؟

* هل ستنتظرون حتى تبدأ إسرائيل عملياتها للتوسع ضدنا فنعود حينئذ إلى الاجتماع لكي نتداول ونتباحث ثم نتناقش ونتفق ؟

إن هذا هو القضاء على الأمة العربية والقومية العربية .

إن الزمن لن ينتظرنا حتى نقرر ، فستكون إسرائيل قد قررت ثم حققت كل ما تريد من أهداف وأطماع .

إن الخطر الذي يجابهنا أكبر مما نتصور، وسيعيد التاريخ نفسه مرة أخرى.

ستكون هناك سبع قيادات عربية أمام قيادة يهودية واحدة وستهزم القيادة الواحدة القيادات السبع مرة أخرى .

إننا بعملنا هذا نساعد إسرائيل على أن تنفرد بنا واحدًا بعد الآخر ، وسنظل نتناقش ثم نتناقش ، ونتداول ثم نتباحث .

وأسدل الستار على مأساة التداول ثم التباحث .

التهديد

وظل ميثاق الضمان الجماعي العـربي حبرًا على ورق كما أراد له موقعوه ورأت إسرائيل وسمعت ، واندفعت تقوي نفسهـا وجيشها وتحفزت ، فالقوم في سبات الخلاف والضغينة والانقسام .

وهددت إسرائيل وتبجحت .

فقال بن جوريون : « سنجبر العرب على قبول شروطنا » .

وقال مناحم بيجن :

« إن إسـرائـيل الموعـودة تمتــد من النيل إلى الـفـرات ويجب أن نعــمل لذلك» .

وهكذا كانت نهاية الضمان الجماعي والدفاع المشترك العربي !

لم نتفق ، ولم نستطع أن نقرر .

وكان علينا نحن الذيـن نحس بالخطر المباشر من إســرائيل أن نبحث عن حل آخر فقد داهمنا خطر جديد .

الضغط

إن الدول التي تدعي لنفسها حق النفوذ في هذه المنطقة أخذت تضغط بوسائل متعددة ، فقد منعت عنا السلاح الذي نطالب به لنحمي أنفسنا من إسرائيل .

كانت تقول لنا : إن الخطر الأساسي هو خطر هجوم شيوعي روسي ، ثم اشترطت في صراحة أنه لكي تعطينا كميات محدودة جدًا من الأسلحة يجب أن تنتظم الدول العربية في حلف للدفاع تحت سيطرتها ضد الخطر الشيوعي الخارجي ، وإسرائيل في داخل المنطقة تستعد للتوسع والعدوان .

ومرة أخرى انقسم العرب على أنفسهم أكثر مما هم فيهه من انقسام .

فاستجابت دولة عربية لهذا الضغط ووقعت حلفًا مع مؤسسي إسرائيل .

وترددت دولة أخرى ، وقاومت ثالثة ، إلى آخر ما يعلمه كل الناس من الماضي القريب .

كان الغرب يعتقد أن خطته هذه هي بداية انهيار العرب لكي يعودوا إلى أحضانه الواحدة تلو الأخرى طلبًا للحماية فاقدين بذلك قوميتهم ومتنكرين لأهدافهم ومذعنين لسياسته ورغباته .

الاعتداء

ثم تحركت إسرائيل .

وفي يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ اعتدت إسرائيل على الحدود المصرية اعتداء مدبراً أقره مجلس الوزراء الإسرائيلي .

وكان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر الذي أفاقت عليه بقية الدول العربية بعد أن تخلفت واحدة .

لم تتخاذل هذه البقية ، ولم ترتم تحت أقدام الغرب لتطلب حمايته ، ولكنها على العكس أفاقت وتنبهت ، وبرغم ذلك استمر ميثاق الضمان الجماعي حبراً على ورق .

وبدأت الدسائس والضغط ، وأصبح واضحًا أن هدف هذه الدسائس هو أن ييأس العرب ، ولا يجدوا لهم من سبيل للدفاع عن كيانهم وحماية حدودهم سوى طريق التحالف مع دولة كبرى تتولى واجب الدفاع عنهم .

نهاية الضمان

وبدأنا نؤمن إيمانًا لا يتطرق إليه الشك أن ميثاق الضمان الجماعي العربي لن يوضع في يوم موضع التنفيذ ، وسيبقى دائمًا حبرًا على ورق .

وأصبح من المحتم على الدول العربية التي تشعر بالخطر اليهودي والطمع الصهيوني أن تجد الوسيلة الناجحة لتنسيق الدفاع بينها ، فكان أن اتفقت سوريا ومصر اتفاقًا عمليًّا ينص على قيادة موحدة لجيش سوريا وجيش مصر .

وبذلك تحقق - لأول مرة - أحد الأهداف الكبرى التي طالما نادت بها شعوب العرب .

وبذلك أصبح على إسرائيل اليوم أن تفهم أنها إذا فكرت في العدوان فإن مصر وسوريا لن تتشاورا ثم تتناقشا ثم تتداولا وأخيرًا تتباحثان ، ولكنهما ستعملان .

ستعملان لا بقيادتين ، وإنما بقيادة واحدة ستجابه قيادتها الواحدة .

قيادة واحدة تعمل في شمال إسرائيل في نفس الوقت الذي تعمل فيه في جنوب إسرائيل .

قيادة واحدة كان مجرد الإعلان عنها فزعًا في إسرائيل ، وسيعلم كل من تحدثه نفسه بالعدوان كيف تكون الرهبة وكيف يكون القتال .

فإلى هؤلاء الذين يقولون : إن ميثاق سوريا ومصر قد يقسم الدول العربية على نفسها أقول :

إنكم تتنكرون لتاريخ الأمة العربية ومآسيه ، وتكفرون بالوطن العربي وما يشقيه ، وتنسون فلسطين وما دهاها وشرد أهلها وسود ضحاها .

إن الأمة العربية لن تتفرق أبدًا لأنها أمة واحدة .

وإذ لم تستطع قياداتها أن تجمع على أمر فيه خلاصها ، فخير للأمة العربية أن تجمع قيادتان فيها على هذا الأمر بدلاً من أن يتفرق الكل طرائق قددًا .

لقد شعرت إسرائيل بخطر هذا الميثاق ودلالته ، فقامت لتنتقم من سوريا بعمل كمين في الظلام لجنود سوريا الشجعان .

إن إسرائيل لن تستطيع أن تواجه سوريا في النهار بعد اليوم ، لأنها تعلم أن هذا يعني أن عليها أن تواجه في نفس الوقت مصر وجيش مصر وإمكانيات مصر .

وأخيرًا ، أن إنجلترا عارضت هذا الميثاق لأنه سيكون آخر مسمار في نعش الوصاية التي تدعيها علينا وعارضته فرنسا لأنها تعتبره تصفية نهائية لنفوذها الذي تفترض وجوده على بعضنا .

وبعد ، أليس خيرًا لنا ولشعوبنا الطيبة أن يتحد جزء منا ليواجه الخطر بميثاق ثنائي أو بمواثيق ثنائية ، من أن ننادي بوحدة العرب ونحن نعمل في الحقيقة لإذكاء الفرقة والاحن والأحقاد ؟

إنني أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق قادة العرب إلى ما فيه خير الشعوب .

فصل ومخرج وأبطال

كنت قد ظننت في وقت من الأوقات أن هذهٔ القصة قد وضحت مواقفها وانفكت عقدتها الأزلية التي لازمت سطورها بعد أن تغير مجرى الحوادث ، وأصبح الأسلوب هو المصارحة لا المجاملة .

وهو الكشف عن موطن الداء لا التماس العذر وخداع الشعوب بالوفاق الوهمي والعبارات المعسولة الجوفاء .

كنت أظن أن هذه القصة قد خرجت على شعوب العرب بنهايتها ، ولكن يشاء القدر إلا أن يخرج علينا فصل جديد .

ولقد لجأ كاتبو الفصل الجديد إلى ما لجأ إليه الأبطال القدامى لسبك أدوارهم فنادوا بالنداء الخالد الذي تهفو له كل النفوس نداء الوحدة العربية ، وجمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف .

وليس أحب إلى قلب كل عربي من أن تتحقق هذه الوحدة ، وأن تجتمع الكلمة وأن يتوحد الصف .

أقولها وقد لمستها من كل مواطن عربي في لبنان وفي سوريا وفي الأردن وفي بغداد وفي المملكة العربية وفي مصر ، بل وفي كل مكان يعيش تحت سمائه عربي واحد من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي .

ولكن . . . . .

إن الفصل الجديد يحوي مفاجأة مذهلة . . .

ففي نفس الوقت الذي أذاع فيه راديو عمان بيانه متعمداً تشويه الحقيقة

لحاجة في نفس أبطال الفصل الجديد ، نجد أن جريدة التيمس الوقورة تنبري لكي تعلق وتحلل قبل أن تسمع كلمة مصر .

وفوجئنا لأول مرة بالتيمس تبكي على الوحدة العربية تمامًا بنفس النغم الذي يردده أبطال الفصل الجديد .

أن التيمس تقول بالحرف الواحد :

« وإن لبنان ومن المحتمل سوريا أيضًا قد لا تتقبلان رفض الرئيس جمال الاجتماع بالارتياح ... » .

ثم قالت :

الرئيس الأردني سمير الرفاعي فشل في التقريب بين مصر والعراق وإنه إذا عقد هذا المؤتمر فإن واجبه الأول هو تقرير سياسة بشأن إسرائيل يكون فيها الرئيس المصري أحد الأعضاء المشتركين وليس الممثل للدور الأول .

ثم تابعت التيمس تعليقها قائلة :

إن الحركة التي قامت بها الأردن كانت مؤيدة تمامًا من جانب لبنان ، وأنها قوبلت بالترحيب في بغداد حيث تكرر الرأي بأن حلف بغداد لا يحتاج لأن يكون مانعًا للوحدة العربية . . .

ثم عادت التيمس تقول :

وإن لبنان ومن المحتمل سوريا أيضًا قد لا تتقبلان رفض الرئيس جمال الاجتماع بالارتياح وأنهما قد تفكران في أن الرئيس جمال عبد الناصر ليس هو البطل العربي في كل الأمور .

وإنه إذا كانت هناك تسوية مع إسرائيل فإنهما تفضلان أن تكون لهما يد فيها أو أنهما لا تريان أن حلف بغداد هو حجر العثرة الذي كشف عنه

الرئيس المصري .

إن هاتين الدولتين « أي سوريا ولبنان » ستظلان تتساءلان ثم قالت التيمس في النهاية :

إلى أي مدى ستتأثر مصالح الدول العربية بوجهة النظر المصرية ؟

انتهى كلام التيمس .

وهكذا بدأ الفصل الجديد يكشف عن شخصية كاتبيه ومصمميه ومخرجيه. . . .

إن المادة في هذا الفصل ليست جديدة .

نحن نعرفها والعرب يعرفونها أيضًا ويعرفون مصدرها على سبيل التأكيد.

فهو نفس المخرج الذي سعى إلى رؤساء الحكومات العربية حينما وجه إليهم الرئيس جمال الدعوة للاجتماع في القاهرة عقب الإعلان عن الحلف التركي العراقي سنة ١٩٥٥ ، وقال المخرج لرؤساء هذه الحكومات :

كيف تقبلون الدعوة وتتوجهون إلى القاهرة ، إنكم إن فعلتم هذا فإنكم تكونون كالعساكر تصدر إليكم الأوامر فتقبلونها .

« إن جمال عبد الناصر يفعل معكم كما كان يفعل هتلر مع رؤساء الحكومات الأوروبية يوم أن كان يأمر فيطاع وكما فعل هتلر على وجه التحديد مع رئيس وزراء بلغاريا ، هل تقبلون على كرامتكم أن تكونوا كرئيس حكومة بلغاريا في عهد هتلر ؟ إن كرامتكم تأبى ولا شك » .

ولما لم يجد هذا اللون من الدس والوقيعة لجأ المخرج إلى الوعد بالمساعدات الاقتصادية والفنية والعسكرية .

أظنه وضح الآن من المخرج ؟

من هو المخرج الذي يملك المساعدات الاقتصادية والفنية والعسكرية يوزعها على عباد الله الذين يسيرون في ركابه .

كان المخرج يتكلم دائمًا على لسان عميله نوري السعيد ومساعديه من العملاء الذين أرسلهم إلى كل مكان .

ومع ذلك فقد عقد الاجتماع ، وكان فشله أكبر نصر للقضية العربية ، إذ انتقل بها من طور النفاق والمجاملات إلى مرحلة الصراحة والعلاج .

وكان النصر الحقيقي هو تحطيم القناع المزيف الذي حجب الحقائق عن رجل الشارع العربي ، وظهر لأول مرة وعي عربي حقيقي جعل من القضية العربية قضية كل عربي بعد أن كانت قضية نفر من الحكام الذين يتلقون التوجيه من خارج المنطقة العربية بل ومن أعداء العرب لينفذوها مشيئة لا ترد كما حدث في كارثة فلسطين ، وأعود إلى حديثي أن النغمة لم تتغير .

ففي سنة ١٩٥٥ قالوا لحكام العرب أن جمال عبد الناصر يأمركم ويسفه أحلامكم وأنتم الشيوخ والرجال الذين يجب أن يستمع جمال لنصحكم وخبرتكم . . .

واليوم في سنة ١٩٥٦ تخرج التيمس مؤيدة أبطال الفصل الجديد بنفس النغمة .

إن التيمس تتحدث عن جمال لكي تساعد الأبطال الجدد ولكن بلسان المخرج الأصلي ، فهي تصور جمال بنفس الصورة التي يريد المخرج أن يثير بها النفوس فيقول : « أنه يرى نفسه الزعيم الذي لا منازع له في العالم العربي ، وأن لبنان وربما سوريا قد لا تتقبلان هذا الوضع ، إلى آخر ما

أوردته على لسان التيمس في هذا المقال .

وهنا أريد أن أقف قليلاً ، ليس لأن مثل هذه الدعاية الرخيصة تستحق أن أقف أو أن أناقشها ، وإنما أريد أن أقف لكي أعود بذاكرتي إلى الوراء يوم أن زرت بغداد وقابلت نوري السعيد في منزله مقابلة دامت زهاء الساعتين ، تحدثت في أولها عن مهمتي الأساسية ، وهي المؤتمر الإسلامي ، حديثًا لم يستغرق أكثر من ربع ساعة ثم أنفقنا الوقت الباقي في حديث عِن السياسة العربية .

وأراني مضطرًا أن أورد ما جرى في هذا الحديث لكي أوضح للأبطال الجدد .

١ ـ رأى نوري السعيد في الأردن وهو أرض أبطال الفصل الجديد .

٢ ـ أن الخلاف بين مصر ونوري السعيد ليس خلافًا شخصيًا كما صوره لهم نوري السعيد بتوجيه من المخرج الأصلي كما هو الحال دائمًا .

٣ ـ ماذا طلب مني نوري السعيد أن أبلغه لجمال .

ولا يهمني في ذلك أن ينكر نوري السعيد ، فقد سجلت عقب المقابلة في مفكرتي كل ما دار ، وأكثر من ذلك ، فإن أكثر من واحد من رجالات العراق سمع مني كل هذا الذي سأرويه عقب مقابلتي لنوري السعيد في بغداد .

وأظن أن هذا الحديث الذي أرويه في الصفحات التالية ليس بخافٍ اليوم في العراق .

سمعت في بغداد

تذكر يا أخي ما كتبته عقب عودتي من رحلتي في بلادي العربية عن الأردن ، وقد أعلن إرادته على تلك الصورة البطولية الرائعة في أول مقال لي صدر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥٥ وقلت فيه بالحرف الواحد :

شهدت أحداث الأردن .

نعم ، شهدت أحداث الأردن عشت فيها من قبل أن تقع ومن قبل أن أزور الأردن تلك الزيارة الخاطفة .

شهدت أحداث الأردن وعشت فيها يوم أن وطئت قدماي أرض لبنان الشقيق .

ومن بعد أن عشت يومين في سورية الحبيبة .

ويوم أن وصلت إلى عمان حاضرة الأردن المكافح .

وحين زرت الظهران عاصمة الزيت على الخليج العربي وجلست أستمع إلى شيوخ القبائل اللاجئين من منطقة البوريمي اكتملت لدي خيوط أخطر مؤامرة شهدها تاريخ هذه المنطقة من العالم .

إن المسألة ليست انضمام الأردن إلى حلف بغداد الإنجليزي كما أنها ليست محاولة التأثير على لبنان لدخول هذا الحلف الشقي .

وإنما هي حرب يائسة تشنها بريطانيا وتعد لها منذ أمد طويل في ميدان يمتد من حدود تركيا الجنوبية شمالاً ، إلى شواطئ المحميات على بحر العرب جنوبًا .

وهدف هذه الحرب هو القضاء على الوعي العربي بعزل شعوب الأمة العربية بعضها عن بعض كخطوة أولى ثم إرغامها على الدخول تحت النفوذ والاستعمار البريطاني بعد أن تصبح كل مقدراتها وأرزاقها وأمنها وسلامتها تحت رحمة إنجلترا وجنود إنجلترا ونفوذ إنجلترا .

وتحدثت في ذلك المقال عن الدعاية البريطانية الخبيثة وكيف أنها كادت تقنع الرأي العام اللبناني أن هناك انتقامًا لابد سيقع على سوريا من أجل السياسة الاستقلالية التي انتهجها ،وكيف أن الناس في لبنان صدقوا لدرجة أن أصبحوا مشفقين مما سيقع وكأنه حقيقة واقعة أو واقع لا مفر منه ، وكيف أن سياسيًا لبنانيًا كبيرًا كشف لي عن مخاوفه هذه في قالب اقتراح يتلخص في ضم سورية إلى العراق للأسباب الأربعة الآتية :

١ ـ التخلص من أطماع تركيا في سورية والعراق .

٢ ـ مواجهة الخطر الإسرائيلي بدولة كبرى تعدادها حوالى العشرة ملايين .

٣ ـ التخلص من نوري السعيد !

٤ ـ « وهو الأهم » الراحة نهائيًا من خوف انتقام إنجلترا من سورية .

وذكرت في مقالي يومذاك ما قاله ذلك السياسي ردًا على سؤال لي من أنه يرى أن لا مانع لديه من أن يمتد النفوذ البريطاني من العراق إلى سوريا حتى تنتهى مشكلة إسرائيل !

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أريد أن أبصرك أيها الأخ العربي أيضًا بظروف زيارتي لبغداد .

فيوم أن وصلت إلى بغداد يوم ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ كنت قد غادرت عمان عاصمة الأردن المكافح ، قبل ذلك بخمسة أيام .

وكنت قد أمضيت زيارتي أثناء وجود الجنرال تمبلر في عمان الذي كان قد سبقني إليها بأكثر من خمسة أيام ولم يسافر إلا عقب أن سافرت منها بيومين .

ويوم أن وصلت بغداد لم يكن الأردن قد هب هبته المشهورة بعد ، وإنما كانت وزارة المفتي قد استقالت وهزاع المجالي يجري استشاراته لتأليف وزارة جديدة ، من أجل ذلك كان يداعب خيال نوري السعيد وأنا جالس إليه أمل كبير في أن تنضم الأردن إلى حلفه ثم يأتي دور لبنان كما كان يتعشم وبذلك تتحكم الحلقة حول سوريا وتعود الأمة العربية ثانيًا إلى حظيرة إنجلترا بفضل جهود رجلها نوري السعيد .

إن الأردن دولة مصطنعة ، دولة لا دخل لها ولا إيراد ، ومن مصلحتها أن تدخل الحلف لتأخذ معونة .

هذا هو رأي نوري السعيد الصريح في الأردن .

فما هو رأي أبطال الفصل الجديد وهم من هذا الأردن الذي يصفه نوري السعيد بأنه مصطنع ؟

وما جدوى هذا الفصل البطولي في التوفيق بين مصر ونوري السعيد وهذا هو رأي نوري السعيد في وطن الأبطال .

الحقيقة أنني أريد أن أقولها كلمة مخلصة لأبطال الفصل الجديد .

إن مصر قد حددت سياستها واضحة صريحة ونصت عليها في دستورها، والخاص والعام في الأمة العربية يستطيع أن يعرفها ويشرحها ،

سياسة استقلالية تؤمن بالوطن العربي ككل لا يتجزأ ، وتحارب الاستعمار وأعوان الاستعمار وأساليب الاستعمار .

ونوري السعيد هو الآخر حدد سياسته واضحة صريحة فربط مصيره بالغرب حلفًا ومعاهدة وتاريخًا ومصالح .

فأين أنتم يا حضرات الأبطال الجدد من هذين الخطين ؟

وما هي حقيقة الدور الجديد الذي ترغبون تمثيله ؟

أن ألفاظ الوحدة العربية وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ألفاظ جميلة براقة مطاطة فقولوا لي بربكم كيف ستجمعون بين الخطين ، خط مصر الواضح وخط نوري السعيد الواضح أيضًا وهما ضدان لا يلتقيان؟

الأجدر بالفصل الجديد لكي تكون فيه جدوى أو بطولة أن تخرجوا لشعوبكم بقرار واضح صريح كما خرج جمال في مصر وكما يفرض نوري السعيد في العراق . وساعتها ستقول شعوبكم كلمتها ، وستكونون على أية حال جديرين بالاحترام لأنكم صارحتم شعوبكم وناديتم بما تؤمن به نفوسكم .

أما أن يخرج من آن لآخر بطل يريد أن يمثل فصلاً جديدًا تحت اسم الوحدة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف طلبًا للتصفيق وتعمية الشعوب عن حقيقة المأساة فهذا ما لم يعد أحد يقبله أو يأبه له .

إن هذه البطولة تضليل طالما ساق هذه الأمة العربية إلى الهلاك ، إن سياسة مصر لا تختلف في شيء على الإطلاق مع ما يريده شعب العراق ، وما يريده شعب الأردن وما يريده لبنان وجميع شعوب العرب .

ولكنها تختلف مائة في المائة مع ما يريده نوري السعيد .

ونحن نؤمن هنا أن نوري السعيد ليس العراق ، فالعراق العربي نعرفه عبر التاريخ في ثوراته وإحداها يذكرها نوري السعيد جيدًا وتذكرونها معه أيها الأبطال الجدد ، وتذكرون أنه يرفض السيطرة البريطانية ويرفض الاستعمار البريطاني .

وتذكرون أيضًا يا حضرات الأبطال أن شعب العراق ثار في القريب لمجرد تعديل معاهدة فما بالكم بحلف أجنبي تدخل فيه إنجلترا عدوة هذا الشعب وصانعة إسرائيل والجلاد الذي قتل أبناء هذا الشعب .

اذكروا هذا جيدًا ووفروا على أنفسكم الدور البطولي الجديد فإن الشعوب قد يقظت ، وهيا بنا نتصارح ونصارح شعوبنا بدلاً من الدجل وذلك التضليل.

والآن ، أنتقل بك أيها الأخ العربي إلى الجزء الثاني من حديث نوري السعيد لأذكر لك رأيه في السياسة العربية صريحًا واضحًا ، وكيف يريد حل مشكلة إسرائيل بنص حديثه .

●●●●●

الفصل الثالث

حكاية الزعامة المزعومة

سياسة مصر... وسياسة نوري

« مهما بلغت قوتك ، وأنت تعتمد على غيرك ، فأنت ضعيف ... وأيًا كانت قوتك ، وأنت تعتمد على نفسك ، فأنت قوي ... إننا نحن العرب أقوياء بقوميتنا وموقعنا ومصادرنا » .

جمال عبد الناصر

كانت الدعاية التي يروجها نوري السعيد ،ومن خلفه بريطانيا ، لحلفه في البلاد العربية قبل عقد صفقة الأسلحة المصرية تعتمد على أمرين اثنين :

الأول : هو أن ساسة مصر شبان قليلو الخبرة (وكان المصدر الأساسي لهذا الترويج ولا يزال هو صحف انجلترا وعلى رأسها التيمس) وأن الرئيس جمال عبد الناصر رجل لا يزال يفكر بعقلية الضابط : يمين يمين ، شمال شمال .

الثاني : أن حصول العراق على الأسلحة كسب ضخم جدًا ، ونصر للقضية العربية ضد إسرائيل ، وأنه مهما كان ثمن الأسلحة من حلف أو خلافه فإن هذا لا يقاس على الإطلاق بالحصول على الأسلحة من أجل الخطر الإسرائيلي .

وكانت هذه الدعاية تجد لها عونًا من ساسة البلاد العربية وخاصة أن فيها كلمة إسرائيل وأسلحة ضد إسرائيل ، لذلك لم يكن يجد هؤلاء الساسة غضاضة في أن يصارحوا الناس برأيهم هذا .

وبينما الدعاية للحلف تسير على هذه الخطوط ، وعلى أن في مصر ديكتاتورية عسكرية ، وعلى أن مصر لن تحصل على قطعة واحدة من السلاح

لموقفها الذي تقفه من الخلف ، وبينما تعـقد التيمس مقارنة بين جيوش الدول العربية .

وتنتهي إلى أن جيش العراق سيصبح بفضل الفنيين البريطانيين والأسلحة البريطانية التي حصل عليها ، الجيش الأول في البلاد العربية ، وبينما تعمدت التيمس في هذه المقارنة أن تحط من قدر جيش مصر .

وبينمـا كان كل هذا يحـدث وبينمـا كانت إنجلـترا ونوري مطمـئنين كل الاطمئنان إلى حلفهما وإلى سير الدعاية له .

انفجرت قنبلة صفقة الأسلحة المصرية التشيكية .

وكان دوي الانفـجار عـاليًا مروعًـا بحيث لمس شـغاف قلوب الشـعوب العربية ، جميعًا ، فـهبت ثلاثة برلمانات تؤيد الرئيس جمال في سوريا ولبنان وفي الأردن .

وانكشفت الدعاية التي تروجها إنجلترا ونوري .

فأما أن جمال عبد الناصر قليل الخبرة في السياسة فهذا ما أثبتت الحوادث عكسه بشكل مفـزع أبسط مظاهره أن أمريكا وإنجلترا ظلتّـا شهورًا طويلة في هذيان مروع على لسان ساستها وصحافتها .

وأما أن نوري قد نجح بحلفه في أن يحـصل على السلاح اللازم للوقوف في وجه إسرائيل فقـد اتضح أن كميات الأسلحة التي حصل عليـها لم تتعد عربات إسعاف وأسلحة مضادة للدبابات والطائرات ووعدا بعشر دبابات !

بينما حصلت مصر بموجب اتفاق تجـاري بحت لا قيود فيه ولا التزامات على أسلحـة لم تصب إسرائيل وحـدها بالزعر ، بل أصـابت أيضًا أمـريكا وإنجلترا .

وأكثر من ذلك حصل تحول غريب في منطق إسرائيل . فبعد أن كان بن جوريون يقيم حملته الانتخابية في الصيف الماضي على الجملة الخالدة :

« **سنفرض الصلح على العرب بالقوة** » .

تراه في ديسمبر الماضي يعلن إفلاس إسرائيل وعدم تسديدها ديونها لأنه يتوقع تصفية الموقف في الصيف .

لم يبق لدعاية إنجلترا ونوري إلا شيء واحد ، لقد انطلقوا يذيعون أن الخلاف بين سياسة مصر وسياسة نوري هو خلاف شخصي مرده إلى الزعامة.

أي إن جمال يريد أن يحقق لنفسه الزعامة على العرب ولذلك فهو مختلف مع سياسة نوري السعيد .

ومن هنا بدأ الفصل البطولي الجديد الذي دفعت إنجلترا بأبطاله إلى الميدان ليتولوا التوفيق وجمع الكلمة وتوحيد الصف .

واندفعت انجلترا في نفس الوقت تولول في التيمس على الوحدة العربية وجمع الكلمة وأن حلف بغداد لا يمنع من الوحدة العربية لولا الرئيس جمال عبد الناصر الذي يريد أن يكون زعيمًا للعرب !

فما هي سياسة مصر وما هي سياسة نوري السعيد ؟

حين وضعت مصر سياستها كان جمال عبد الناصر ينفعل بعدة عوامل :

الأول : أن الشعب المصري رفض الأحلاف منذ ١٩٥١ بطريقة قاطعة .

الثاني : أن الدفاع عن العرب يجب أن ينبثق من المنطقة معتمدًا على الضمان الجماعي العربي بدون إشراك دولة أجنبية عن المنطقة .

الثالث : التعاون مع الغرب على أساس إتاحة القوة للعرب وحل القضايا العربية حلولاً عادلة .

الرابع : أن مأساة فلسطين القريبة والدرس الذي تلقيناه بالدم على أيدي إنجلترا وأمريكا اللتين صنعتا إسرائيل لابد وأن يكون لهما تقدير عميق ، خاصة وأن إسرائيل خطر يهدد الأمة العربية كافة ، وأن إنجلترا وأمريكا ظلتا دائمًا من خلفها حتى في العدوان .

الخامس : أنك مهما بلغت قوتك وأنت تعتمد على غيرك فأنت ضعيف، وأيًا كانت قوتك وأنت تعتمد على نفسك فأنت قوي وإننا نحن العرب أقوياء بقوميتنا وموقعنا ومصادرنا .

وعلى هذه الاعتبارات والأسس قامت سياسة مصر صريحة واضحة بسيطة .

فحين عرض الغرب على مصر الأحلاف رفض الرئيس جمال لأن معناها أن نعتمد على غيرنا ، وقد جربنا خلال سبعين سنة معنى هذا الاعتماد .

وأمر آخر أشد خطورة ، وعجيباً . . . إننا بدخولنا حلفًا مع إنجلترا وأمريكا سنوكل أمرنا إذا ما اعتدت علينا إسرائيل إلى صانعي إسرائيل !

فأي منطق أو عقل أو سياسة أو كرامة في هذا ؟

وهكذا قامت سياسة مصر على المبادئ الآتية :

١ ـ أن مصر جزء من الكيان العربي الذي لا يتجزأ .

٢ ـ لا سيطرة ولا استعمار ولا أي قيد من أية ناحية .

٣ ـ الذي يدافع عن العرب هم العرب أنفسهم ، ويجب أن تنبعث القوة للدفاع عن هذه المنطقة من داخلها ، لا من خارجها أو اعتمادًا على دولة

كبرى في حلف أو ميثاق .

٤ ـ احترام لمن يحترم استقلالنا ومشيئتنا .

٥ ـ يد ممدوة بالصداقة للعالم أجمع علـى قدم المساواة وتستطيع أن تجمل كل هذا في كلمتين . . . استـقلال تام ، أو في مـعنى آخر بسيط هو سـيادة الشعب سيادة كاملة على أرضه ورزقه ومصيره .

فما هي سياسة نوري السعيد ؟

وأود هنا أن أعيد ما قلته من أن سياسة نوري السعيد ليست سياسة شعب العراق ، فالشعب العراقي يعرف تمامًا ما يريد ، وما يريده هو ما يريده شعب مصر وما يريده كل شعب عربي .

لقد قلت أن نوري السـعيد جريء لأنه يجاهر برأيـه ، وها هو رأيه كما يعرفه كل عربي :

إن نظرية نوري هي أن البند ١٥ من مـيثاق الأمم المتحـدة « وهو الخاص بالاتفاقيات الإقليـمية » يتيح لنا من خلاله أن نصنع تنظيـمًا للدول العربية ، ونربطه بـحلف البلقـــان من أجل الدفـاع ومن رأي «نـوري» أن العـرب لا يستطيـعون أن يقـفوا وحدهم ، كـما يرى في الوقت ذاته أننا لا نـستطيع أن نستـغني عن الغـرب ، وأننا إذا استطعنا أن نكسب الغـرب إلى جانبـنا ضد إسرائيل فإن هذا يكون هو الحلم الذي يراودنا .

ونحن ، في رأي نوري السعيد ، لا نستطيع أن نكسب الغرب إلى جانبنا بالكلام ، بل نستطيع ذلك بالعمل .

وكانت نظرية «نوري» أن في استطاعتنا نحن العرب أن نتمم العملية على خطوتين :

الخطوة الأولى : هي أن نمضي مع الغرب ، ونأخذ أسلحة دفاعية مضادة للطائرات ومضادة للدبابات وبعد ذلك تأتي .

الخطوة الثانية : وهي أن نطلب من الغرب السلاح الثقيل .

ويرى نوري السعيد أننا إذا أخذنا الغرب في صفنا ، فإن إسرائيل سترتمي من خلال هذا في أحضان الشيوعيـة ، والنتيجة التي يراها تبعًا لذلك هي أن إسرائيل ستصبح شيوعية ، وعندئذ يكفينا الغرب مؤونة القضاء عليها .

هل هو خلاف شخصي؟

لقد استعرضت لك أيها الأخ العربي سياسة مصر ، وأوردت لك سياسة نوري السعيد ، وهي السياسة التي لا يخفيها أو ينكرها نوري السعيد بل إنه كما قلت شجاع لأنه يجاهر بها برغم أن شعب العراق لا يؤمن بها !

وهنا يحق لي ولك أيها الأخ العربي أن نتساءل :

ما هي حكاية الوساطة بين مصر والعراق وكيف تكون هذه الوساطة ، أي إلى أي هدف يجب أن تهدف ، وهل استعمال الكلمات البراقة كالوحدة العربية وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف حقيقة أريد بها وجه الله أم حقيقة أريد بها باطل ؟

حين ذهبت إلى لبنان في شهر ديسمبر ١٩٥٥ سمعت البعض يردد أن الخلاف بين مصر والعراق خلاف شخصي على الزعامة .

وحين أتى على العرب حين من الدهر هبوا ليستنكروا فيه الحلف العراقي التركي البريطاني على أساس أنه طعنة قاتلة للقومية العربية لأن صانعيه هم صانعوا إسرائيل ، لم تجد إنجلترا وأمريكا وتابعهم نوري السعيد خيراً من أن يلقوا بين صفوف شعوب العرب وحكامهم بحكاية الزعامة هذه وكأن معارضة مصر في نظرهم لم تكن إلا للزعامة لا للقضية التي تخان ، ولا للوحدة التي تمزق ، ولا للأسلوب الذي يراد به قيام إسرائيل ووجودها وجوداً شرعيًّا ، فالخطة كانت أن يدخل العرب مع إنجلترا وأمريكا هذا الحلف ، ثم تدخل إنجلترا وأمريكا من الناحية الأخرى في اتفاق مع إسرائيل تحت ستار الدفاع عن المنطقة ، وإسرائيل طبعًا عضو في هذه المنطقة !

وحين أراد الإنجليز في صحفهم أن يعلقوا لم يجدوا خيراً من هذا التعليق يثيرون به النفوس ويبذرون به بذور الفتنة فقالوا أن مصر تريد الزعامة وأن جمال عبد الناصر يصرعلى أن يكون الزعيم الأوحد .

ونحن هنا في مصر نعتبر هذه الدعاية تسفيهًا للعقول لسبب بسيط جدًا هو أن هذه الثورة قامت لتقضي على الانقسام والخلاف من أجل الشخصيات وهو ما عانى منه هذا البلد ويعاني منه كثير من شعوب العرب اليوم بسبب التناحر الذي يقوم بين الرجالات في البلد الواحد لأسباب شخصية بحتة لا تمت إلى الصالح العام بسبب .

ومن جهة أخرى فإنني أريد أن أناقش موضوعيًّا هذه الزعامة إذا صح أن وجدت فإنه يقال مثلاً إن أمريكا وإنجلترا تتنافسان على الزعامة في الشرق الأوسط أو في منطقة كذا من العالم فماذا يعني التنافس على الزعامة ؟

أن الرجل العادي يستطيع أن يدرك في غير صعوبة ولا تعقيد أن التنافس على الزعامة يكون مرده دائمًا إلى المصالح ، بمعنى أنه إذا قيل أن أمريكا وبريطانيا تتنافسان على الزعامة في الشرق الأوسط وهو صحيح إلى حد ما ، فإن ذلك يعني أن لكل من أمريكا وبريطانيا مصالح تريد أن تحافظ عليها عن طريق فرض زعامتها وبالتالي كلمتها حتى تستطيع أن تأمن على مصالحها في هذه المنطقة وحتى تستطيع أن تحقق أكبر كسب ممكن لمصالحها في هذه المنطقة .

والمحافظة على هذه المصالح تحتم على الدولة الزعيمة أن توجد لها في كل بلد من بلاد هذه المنطقة حكامًا ورجالاً من أهل البلد نفسه يتولون رعاية مصالح هذه الدولة الزعيمة لهم سواء في شكل ثروة يقيدها ، أو سلطان يحققه عن طريق البقاء في الحكم بمساندة هذه الدولة ، وفي الماضي كانت

تلجأ إنجلترا مثلاً لفرض زعامتها ورعاية مصالحها إلى إبقاء جيش احتلال بريطاني في البلد الذي تريد أن تستعمره ثم تطورت الفكرة إلى عقد معاهدة تجعل بها هذا الاستعمار شرعيًّا على أيدي زعماء من هذا البلد مع إبقاء قوات احتلال لها ، ثم تطورت الفكرة مرة أخرى إلى آخر ثوب يناسب القرن العشرين وهو أن تسحب قواتها بعد أن أصبحت تكاليفها غالية وتستعيض عنها بما يعوض وجود هذه القوات وقيام المعاهدة وهو الحلف .

أليست هذه هي الحقيقة التي مرت بنا جميعًا أيها الأخ العربي في كل قطر من أقطارنا ؟ وأليس هذا هو زي الاستعمار الذي غيره كلما صدمه الوعي ؟

إنني أنتزع هذا التفسير من صميم تاريخنا وحياتنا ، فإذا أشاع الإنجليز والأمريكان والسيد نوري السعيد عميلهم ومساعدوه اليوم أن جمال عبد الناصر يريد أن يكون الزعيم الأوحد للعرب وإنه لذلك يعارض سياسة إنجلترا وأمريكا في الوطن العربي فإن هدف هذه الإشاعة يكون واضحًا ومفهومًا كالشمس ، فانجلترا لا تريد أن يقوم بين العرب رجل يبصرهم بماضيهم وحاضرهم ولا أن يذكرهم بمأساة فلسطين ، ولا أن يصارح الشعوب العربية بحقيقة ما هي فيه ، ولا أن تبلغ به الجرأة فلا يستمع لأوامرهم أو يخضع لمشورتهم ، لأن معنى هذا كله أن زعامتهم ستتلاشى أو بمعنى آخر أن مصالحهم التي يرغمون الشعوب على تحقيقها لهم ستصبح مهددة لأن الوعى العربي القومي الشعبي سيجرفها شاء الحكام أم لم يشاءوا .

ورب سائل يقول : وما هي هذه المصالح التي لبريطانيا ؟

فأقول :

١ ـ الزيت في العراق وفي الخليج الفارسي وفي البوريمي وفي المحميات،

ودخل الحكومة البريطانية من هذا الزيت الذي يخرج من الخليج الفارسي وحده يشكل رقمًا يقدر بحوالي الستمائة مليون دولار ، هذا بخلاف تأثر دخل الحكومة البريطانية من زيت عبدان إذا ما فقدت سيطرتها وزعامتها في المنطقة العربية وهذا أمر يطول شرحه .

٢ ـ الأمة العربية والشرق الأوسط سوق تجارية لمنتجات بريطانيا الصناعية وبريطانيا تقوم حياتها على الصناعة ، وليس في هذه المنطقة صناعة على الإطلاق ومن مصلحة بريطانيا أن لا تقوم فيها صناعة إلى يوم القيامة ـ وفي الكتب المدرسية التي صنعها الإنجليز لنا كانوا يعلموننا أن مصر بلد زراعي وأنها لن تصلح لأن تكون بلدًا صناعيًّا لعدم وجود الفحم والحديد اللذين يوجدان في بريطانيا وحدها .

٣ ـ تحتل الأمة العربية رقعة ذات موقع استراتيجي خطير من العالم .

ويكفي لكي تدرك ذلك أن تعلم أن إنجلترا انتصرت في حربين عالميتين جبارتين بميادين التدريب الفسيحة في مصر وقواعدها في الشرق الأوسط التي كانت تمد جميع ميادين القتال بالجند المدربين والسلاح والعتاد والمؤن لأنها في مركز متوسط من العالم كله .

٤ ـ يكمن في باطن أرض العرب ثلثا البترول في العالم أو أكثر ، والبترول علاوة على دخل الحكومة البريطانية منه يشكل العصب الحاسم لصناعتها وللحرب وللسلم على السواء .

هذه بعض مصالح بريطانيا التي تدعوها إلى الاحتفاظ بالزعامة والتي تدعو أمريكا إلى منافستها على الزعامة .

فما هي المصالح التي يريد جمال عبد الناصر أن يحققها بفرض زعامته الوحيدة على هذه المنطقة كما تقول إنجلترا وأمريكا وعميلهم نوري السعيد ؟

ماذا يريد جمال ؟

كلنا في الهم شرق ... وهـمنا في الشرق كان ولا يزال في داء الزعـامة ، وفي مـحنة الأحقـاد ... وجـمال أبدا لن يداوي الـداء بالداء ... وإنما شرعـه الحسم بشافي الدواء .

ما هي المصالح التي يريـد جمال عبد الناصر أن يحـققها بفرض زعـامته الوحيدة على هذه المنطقة كما تقول إنجلترا وأمريكا ونوري السعيد وأذياله ؟

هل طفح الإنتـاج الصناعي في مـصـر لدرجة أنه أصـبح ينافس إنتـاج بريطانيا وأمريكا . ولذلك يريد جمال أن يطردهم جمـيعًا ليحقق مصالح في هذه الناحية ؟

وهل يريد جمال عـبد الناصر أن يعد قواعد في البـلاد العربية لكي يثب منها على أوروبا ؟

أم هل يريد جـمال عـبد الناصـر أن يكمل مـيزانيـته من بتـرول الخليج الفارسي وبترول العراق ؟

وهل يريد جمال عبد الناصر أن تحتل جـيوشه هذه البلاد العربية ليفرض زعامته الوحيدة لأن له أطماعًا إقليمية في هذه البلاد ؟

أم هل يريد جمال عـبد الناصر أن يؤمن نفسه ضد الحـرب الباردة وضد الكتلة الشرقية ولذلك يلجأ إلى فرض الأحلاف عن طريق الزعامة ؟

ما هي المصلحـة التي يسعى إليـها جمـال عبد الناصـر عن طريق فرض الزعامة الوحيدة المزعومة ؟

إن الأمر لا يعدو أن يكون تخريفًا وهراء تريد إنجلترا وأمريكا بهما بلبلة الأفكار خصوصًا وأن في الأمة العربية إلى اليوم من لا يزالون يؤمنون بالزعامات والأطماع الشخصية ويؤمنون فوق كل شيء وقبل كل شيء بالولاء الأعمى للغرب والإخلاص لبريطانيا وحليفتها أمريكا حتى ولو كان هذا الولاء لصانعي إسرائيل .

بعد كل هذا سأقول لإنجلترا وأمريكا وأبطال الفصل الجديد في قصة الوحدة العربية الذين أكتب من أجلهم هذه السطور .

سأقول لهم جميعًا :

إذا كانت زعامة جمال عبد الناصر تعنى أن يستقل العرب عن كل سيطرة أو قيد أجنبي فإن رجل الشارع العربي يرحب بها كما سمعتم بآذانكم ورأيتم بعيونكم .

وإذا كانت زعامة جمال عبد الناصر تعنى أن يسيطر العرب في وطنهم على أرضهم وسمائهم ومقدراتهم ويختاروا لأنفسهم بمحض مشيئتهم مصيرهم الذي يزعمون ، فإن رجل الشارع العربي يرحب بهذه الزعامة .

وإذا كانت زعامة جمال عبد الناصر تعنى أن مستقبلاً كريمًا ينتظر هذه الأمة العربية عليها أن تسطره بمداد من الكرامة كما سطرت تاريخًا نظيفًا مضيئًا للعالم كله من قبل فإن رجل الشارع العربي يؤمن بزعامة جمال ويهتف من كل قلبه لجمال .

وأقول لكم جميعًا يا إنجلترا ويا أمريكا ويا أعوان الاستعمار وأنا أعرف جمالاً كما أعرف نفسي ـ إن جمالاً يريد هذا كله بل وأكثر منه .

ولكنه لم يفكر لحظة واحدة في مسألة الزعامة .

إن جمالاً صاحب دعوة ، وهو يؤمن أن مسألة الزعامات كانت من تقاليد عهد الانحلال يوم أن كان المستعمر يحطم في رجالنا كل روح إنشائية بناءة بشغل نفوسهم بالزعامة والأحقاد والمجد الشخصي !

وما يعمله جمال اليوم هو أن يدعو بما يحسه في نفسه نتيجة لآلام الماضي ويأسه ، لذلك تستجيب له الشعوب قبل الحكام ثم لا يلبث أن يستجيب الحكام لأن الإرادة هي إرادة الشعوب لا إرادة الحكام .

وأمر آخر يحسه جمال يا حضرات الزعماء والأقيال هو أننا كلنا في الهم شرق .

وهمنا في الشرق كان ولا يزال في داء الزعامة وفي محنة الأحقاد .

وجمال أبدا لن يداوي الداء بالداء وإنما شرعه الحسم بشافي الدواء .

الفصل الرابع

وحدة العرب والاستعمار

هيبة بريطانيا

في سنة ١٩٠٤ كان الوفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا وبمقتضى هذا الوفاق أطلقت يد إنجلترا في مصر ، وأطلقت يد فرنسا في شعوب شمال إفريقيا وتونس والجزائر ومراكش .

وناضلت مصر إنجلترا حتى أرغمتها على الاعتراف بحقها كاملاً في كفاح مستمر انتهى بتوقيع اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ .

وناضل عرب شمال إفريقيا ولا زالوا يناضلون حتى اليوم لكي تعترف فرنسا لهم بحقهم في الحياة والحرية كاملاً غير منقوص .

ومنذ يومين خرجت جريدة «الديلي تلغراف» الإنجليزية بمقال افتتاحي قالت فيه :

« **إن مصالح فرنسا وبريطانيا في العالم العربي ليست متعارضة ، الدولتان تواجهان نفس الخطر وهو خطط العروبة العدوانية بقيادة مصر** » إلى آخر ما جاء في هذا المقال . . . .

إن المقال المذكور يحيي ذكرى الوفاق الودي الهزيل .

فالجريدة الاستعمارية تطلب علنًا تنسيق سياسة إنجلترا وفرنسا بحيث تتعاونان في العالم العربي على القرصنة من جديد بدلاً من أن يمارس كل واحد فنونه وأساليبه الاستعمارية المصاصة في دماء العرب منفردًا لأن خطط العروبة الجديدة تهددهم وتقض مضجعهم .

ولقد أثبت تطور الحوادث في الشهور الأخيرة أن العقلية البريطانية

الاستعمارية التي وصفوها تارة بالدهاء وتارة بالمكر وتارة بالجبروت ، ما هي إلا عقلية تافهة رتيبة تكرر نفسها في غباء مطلق يثير السخرية ويبعث على الإشفاق .

وأثبت تطور الحوادث أيضًا في الشهور الأخيرة أن ذلك الإطار الوهمي الذي سموه هيبة بريطانيا ما هو إلا أكذوبة كبرى خدعوا بها أصحاب المصالح من الحكام ، ويا للأسف ما زالوا يخدعون بها إلى اليوم زعماء وأقيالاً ، لقد كشفت الشعوب العزلاء كل هذه الأوهام .

كشفها شعب الأردن يوم أن ثار في وجه تمبلر ، ثم ما لبث أن طرد جلوب .

وكشفها شعب البحرين الصغير يوم أن سجن سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا العظمى في المطار ساعات طوالاً وهو يصرخ في وجهه أن عد إلى بلادك يا رسول الاستعمار .

ومع كل ذلك فقد اقتضت العقلية البريطانية الجبارة أن تنتقم من شعب أعزل صغير لتسترد تلك الهيبة المضحكة فلجأت إلى التنكيل بشعب قبرص ونفى الأسقف المكافح إلى سيشل كما فعلت تمامًا في مصر قبل ربع قرن أو يزيد !

إن المكر والدهاء والقوة هي للشعوب المغلوبة اليوم وليست لعقليات الاستعمار . . . .

وإن الهيبة اليوم كل الهيبة هي لإرادة الشعوب .

ألا تتعلمين يا بريطانيا ؟

وأنت يا فرنسا ؟

وأنت أيضًا يا أمريكا ، يا من تمولين هذه العقليات ؟

الحزم

لصحافة بريطانيا الوقورة تعبيرات تقليـدية تشبه تمامًا ذلك الشعر المستعار التقليدي الذي يلبسونه في المناسبات عندهم لإشعار أنفسهم بالوقار ثم محاولة إشعار غيرهم بهذا الوقار .

وحين أرادت بريطانيا أن تخرج بهـذا الوقار المزيف على العالم اصطنعت لنفسها ألفـاظًا وكلمات ضخمة رنانة أخذت تخـرج بها على العالم بين الحين والحين لكي توهم الناس بقوة بريطانيا ودهاء وعظمة بريطانيا .

وأحد هذه التعبيرات كلمة «الهيبة» .

ولقـد تناولت هذه الكلمة وأعـدتهـا إلى أصل معناها فـاتضح أن هيبـة بريطانيـا التي كانت تنادي بهـا صحـفهم ويصـرخ بها رجالاتهـم ما هي إلا أكذوبة كـبرى على النحـو الذي أرادوا أن يخوفوا به الشـعوب وأن إرادة أي شعب مهما كان صغيرًا أعـزل كفيلة بنسف تلك الأكذوبة على نحو ما حدث في الأردن الباسل .

وفجأة أقلعت صـحافة بريطانيا عن استعـمال ذلك التعبير لتنادي بتـعبير آخر من نفس قاموس الاستعمـار وهو «الحزم» وأن صحافة بريطانيا تنادي منذ أسبوع بضرورة استعمال الحزم في الشرق الأوسط ضد جمال عبد الناصر .

ولم يقتصـر هجومها على مـصر وعلى جمال وإنما تعـدى ذلك الهجوم الأطلنطي إلى أمـريكا فخرجت صـحافة بريطانيـا بالرسوم والمقـالات تهاجم أيزنهاور وتهاجم دالاس إلى أن بلغت القمـة في مقال لمن يدعي لورد هيلشام صدر في جريدة الديلي جرافيك يقول فيه بالحرف الواحد :

« لقد سيطر عبد الناصر على الأمـريكان تمامًا ، وهو يقود وزارة الخارجية الأمريكية من الأنف .

ثم يستطرد قائلاً :

« إن الدكتاتور المصري يـلعب لعبة ضخمة ولن يوقفـه شيء عن محاولة كسب هذه اللعبة .

« وفي الحقيقة لن يوقف عبد الناصر شيء من العمل على تحطيم إسرائيل كلية وهذا معناه إبادة شـعب إسرائيل وهذا هو ما لا تستطيع وزارة الخـارجية الأمريكية أن تتبينه ـ وإلى أن تعترف وزارة الخارجية الأمريكية بهذه الحقيقة لا يمكن أن يقوم السلام » .

واستمر اللورد المذكـور في مقاله يعدد ما جلبتـه أمريكا على بريطانيا من كوارث في الشرق الأوسط إلى أن قال :

« إن علينا الآن أن نكون حـازمين مع عـبـد الناصر ويجـب علينا أن نقنع الدول العربية الأخرى بأنها في طريقها إلى الدمار ... » .

وفي نفس الوقت خرجت علينا صحف بريطانيا أيضًا تقول :

« إن إيدن أرسل رسالة إلى أيزنهاور يطلب منه فيها الـعمل معه ضد عبد الناصر ولكن أيزنهاور لم يجب ، ولذلك ثارت ثائرتهم ... » .

وفي نفس الوقت أيضًا هاجمت صحف بريطانـيا المستر دالاس قال : إن جمال عبد الناصر يريد أن يحـافظ على استقلال دول الشرق الأوسط ، وفي كل هذه المقالات والهجمات تستعمل صحافة بريطانيا دائمًا كلمة «الحزم» .

فأما عن الهجوم على جمال من صحافة بريطانيا فإنني في غير حاجة لأن أحكي حكايته .

إنه صراع بين الحق والباطل بين الحرية والاستبداد .

بين استعمار كريه يستنزف دماء الشعوب الصغيرة ويلهب ظهورها بالسياط ، وبين صرخة الحياة التي ملأت قلوب هؤلاء العزل المكبوتين فانطلقت تحطم القيود وتنسف السيطرة وتهزأ بالتحكم .

صراع بين من يطلبون السيجار - على حد قول صحفهم - والحياة المرفهة المترفة من جيوب الآخرين وبين من يطلبون الحياة البسيطة الكريمة من جيوبهم ومن موارد بلادهم .

أما عن هجوم بريطانيا على أيزنهاور فهو حقيقة أمر جدير بنا أن نقف عنده ونبحثه .

ففي الأصل كانت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية أمل الكثيرين من الأحرار الذين يتطلعون إلى مستقبل ينتهي فيه شأن الاستعمار الذي جلب على البشرية الكوارث والدمار .

كان الأحرار يرون في أمريكا أملاً وخاصة أنها ليس لها تاريخ استعماري بل على العكس لها تاريخ في صراع الاستعمار البريطاني تكبدت فيه الأهوال والمصائب ، وحين انتصرت إرادة الشعب الأمريكي خلد هذا الانتصار على رمز يمثل الحرية وينادي بالمساواة .

ثم حدث أن انحرفت سياسة أمريكا في عهد ترومان خليفة روزفلت وتمكن تشرشل من أن يربط أمريكا إلى عجلة الدول الاستعمارية وجرها من خلفه ووقعت أمريكا وساسة أمريكا تحت سيطرة الصهيونية من جهة ما أراد لها ترومان ، ومن جهة أخرى اندفعت أيضًا تؤيد قضايا الاستعمار كما أراد لها أيضًا ترومان .

وحين أعلن أيزنهاور عدم جدى تسليح إسرائيل .

وحين لم يستجب أيزنهاور لنداء إيدن بالوقوف ضد جمال ثارت ثائرة بريطانيا وصحف بريطانيا .

فإن معنى وقوف أيزنهاور هذا الموقف أن أمريكا تريد أن تنتهج سياسة استقلالية تقدر مصالح أمريكا الحقيقية وليست مصالح بريطانيا الاستعمارية .

إن إيزنهاور رجل عسكري وهو شجاع كما تصفه صحف بريطانيا .

ولقد رأى بعينيه وأحس بيديه كيف أن العرب اليوم ليسوا هم العرب الذين عرفتهم بريطانيا بالأمس .

إننا نحن العرب نرحب بكل من يريد أن يتفهم قضيتنا ونمد يدنا لنصافح من يحترم حريتنا ومشيئتنا .

إننا نرحب بسياسة أمريكية متحررة تقدر مصالح أمريكا الحقيقية ، متحررة من نفوذ الصهيونية، ومتحررة من مساندة الاستعمار والسيطرة فهل قدر لإيزنهاور أن يضع هذه السياسة بعد كل هذه الدلائل ؟

إننا نأمل ، أما عن «الحزم» البريطاني فليس له عندي إلا ابتسامة لعل فيها إشفاقًا ، ولعل فيها سخرية .

الاستعمار والبيان الروسي

قرأت ما أذاعته محطة الشرق الأدنى عن العالم العربي في أسبوع .

ومحطة الشرق الأدنى محطة بريطانية تصرف عليها وتوجه سياستها بريطانيا .

وهي أداة الدعاية البريطانية الأولى في العالم العربي بدأ الحديث بالتعليق على البيان الروسي ، وحينما انتهى الحديث تخيلت أن روسيا كانت قد عقدت حلفًا مع العرب تعهدت فيه أن تقضي على إسرائيل وأن تقدم فلسطين هدية إلى العرب ، وأنها ـ أي روسيا ـ نقضت هذه التعهدات . . .

قالت محطة الشرق الأدنى : « **إن البيان الروسي قد بين أن روسيا تتحيز لإسرائيل ، وأنها تعلن أن إسرائيل باقية** » .

ثم قالت محطة الشرق الأدنى أيضًا :

لقد آن لزعماء العرب الذين اعتقدوا أن روسيا ستساندهم ضد إسرائيل إن يعرفوا روسيا على حقيقتها . . .

ثم استطردت تقول :

ومن هذا نرى أن مبدأ الحياد الذي نادى به جمال عبد الناصر لا يمكن تطبيقه فإن الدول الصغرى لا يمكن أن تعيش إلا إذا اتفقت مع دولة حرة كبرى . وأن بريطانيا هي راعية العرب ولابد لهم من أن يتفقوا معها لحمايتهم ضد العدوان .

هذا ما قالته محطة الشرق الأدنى للإذاعة البريطانية . . . . وهو قول لا

يقوله إلا من يستخف بعقول العرب وأفهامهم .

إننا هنا في مصر حينما عقدنا صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا كنا نعلم تمام العلم أن تشيكوسلوفاكيا لها سفارة في إسرائيل ، وأن روسيا لها أيضًا سفارة في إسرائيل ، وأنهما تعترفان بإسرائيل كما تعترف بها بريطانيا وفرنسا وأمريكا والأمم المتحدة . . .

ونحن لم نشترط على تشيكوسلوفاكيا أو روسيا لكي نشتري منها السلاح أن تقطع علاقاتها بإسرائيل أو أن تغلق سفارتها في إسرائيل . ولكننا كنا نعلم أن إسرائيل تحصل على ما تريد من السلاح من الدول الغربية .

وأن إسرائيل تحصل على ما تريده من الأموال من معونات رسمية وغير رسمية من الدول الغربية .

وكنا نعلم أننا قضينا ثلاث سنوات في استجداء السلاح من بريطانيا ومن أمريكا ومن فرنسا ، ولم نستطع أن نحصل على هذا السلاح ، برغم أننا بذلنا في سبيل ذلك كل شيء حتى ماء الوجه .

ثم اتضح لنا أن السلاح كان ثمنًا لبيع استقلالنا والتخلي عن حريتنا ، كان ثمنًا لأن نوضع تحت إرادة بريطانيا ، ننفذ إرادتها ونلبي رغبتها ومشيئتها .

وكنا نعلم أن الغرب يحمي إسرائيل ، بل أنه أنشأ إسرائيل . . .

وكنا نشعر أيضًا بالتهديد ونشعر بالعدوان وبتبجح إسرائيل .

فإن صحافة بريطانيا وأمريكا كانت تقول :

« إن إسرائيل عندها من الأسلحة الحديثة ما يمكنها من الوصول إلى القاهرة في أربع ساعات » .

وطلبت مصر من تشيكوسلوفاكيا أن تبيعها سلاحًا ووافقت تشيكوسلوفاكيا .

وعقدت صفقة الأسلحة بدون قيد ولا شرط .

واحترمت تشيكوسلوفاكيا توقيعها فسلمت الأسلحة المطلوبة قبل الوقت المحدد

وهنا فقط بدأنا نشعر بالأمن والطمأنينة فنحن قد طلبنا سلاحًا يحمينا من غدر إسرائيل وغدر الاستعمار صانع إسرائيل .

طلبنا سلاحًا نحمي به استقلالنا وحريتنا لا سلاحًا ندفع ثمنًا له حريتنا واستقلالنا .

لم نعقد مع روسيا حلفًا دفاعيًا أو ميثاقًا عسكريًا كميثاق بغداد حتى نعمل معها أو تعمل معنا على القضاء على إسرائيل أو أن تسحب اعترافها بإسرائيل .

أما الحلف الوحيد الذي اشتركت فيه دولة عربية فهو حلف بغداد البريطاني .

ولم نسمع حتى الآن أن بريطانيا قد قطعت علاقاتها مع إسرائيل أو أنها ستعمل مع العرب للقضاء على إسرائيل .

إن بريطانيا صاحبة البيان الثلاثي وصاحبة حلف بغداد أعلنت وأكدت أنها ستنضم إلى إسرائيل ضد العرب إذا اعتدى العرب على خطوط الهدنة .

بل إن بريطانيا امتنعت عن مد العرب بالسلاح ولكنها استمرت في إمداد إسرائيل بالسلاح . . . . فقد قامت سفينة إسرائيلية من بريطانيا اسمها «الجليل» محملة بشحنة من السلاح ليستعمل في تقتيل العرب وتشريدهم .

هذا ما عملته بريطانيا بعد أو وقعت حلفًا مع دولة عربية ولا زالت بريطانيا تعترف بإسرائيل.

ولها سفير في إسرائيل .

وأعلنت حمايتها لإسرائيل .

وبرلمانها كله في صف إسرائيل .

وزادت الطين بلة فمدت إسرائيل بالسلاح والعتاد .

ليس هذا فحسب ، بل إن بريطانيا عملت كل ما في وسعها لمنع تشيكوسلوفاكيا من إرسال السلاح إلى مصر حتى تشعر مصر دائمًا بالتهديد وتبحث عن دولة كبريطانيا تتولى حمايتها .

هذه هي بريطانيا صديقة العرب .

هذه هي بريطانيا حليفة إحدى دول العرب .

هذه هي بريطانيا التي تدعو محطة الشرق الأدنى العرب جميعًا لكي يدخلوا تحت حمايتها . . . .

أما تركيا مخلب القط في حلف بغداد والتي تحالفت معها إحدى الدول العربية أيضًا فلم نسمع حتى الآن أنها سحبت اعترافها بإسرائيل ، أو قيدت تجارتها مع إسرائيل .

فإن لتركيا حتى اليوم سفيراً في إسرائيل .

وهي حريصة على إرضاء إسرائيل .

بل إن علاقاتها التجارية قد ازدادت مع إسرائيل بعد توقيع حلف بغداد .

وفي كل أسبوع نسمع عن بعثة لإسرائيل في تركيا وبعثة لتركيا في

إسرائيل .

بل إن سفينة تركيا كانت في إسرائيل ، بادرت فتبرعت لإسبوع التسلح الإسرائيلي .

هذه هي دول حلف بغداد

هذه هي الدول التي تحالفت معها إحدى الدول العربية

فإذا قالت روسيا في بيانها :

« إن الاتحاد السوفيتي قد وقف موقف العطف والتأييد الحار من جهود بلدان الشرق الأدنى الموجهة إلى تحقيق وتوطيد الاستقلال الوطني لمصر وسوريا ولبنان وإسرائيل ، وأن الاتحاد السوفيتي يرى أنه من الضروري الاتجاه نحو تسوية للقضية الفلسطينية على أساس مقبول من الجانبين داخل الأمم المتحدة ، وأن الاتحاد السوفيتي يعارض أي تدخل من خارج الأمم المتحدة. . . » .

إذا قالت روسيا هذا فإن الاستعمار يولول ، وأعوان الاستعمار يلطمون الخدود ويذرفون دموع التماسيح على آمال العرب في روسيا وفي مساندة روسيا لهم للقضاء على إسرائيل !

ثم يقدم الاستعمار البريطاني النصيحة للعرب فيقول :

إن روسيا قد اتجهت إلى دعم إسرائيل ، فليس أمامكم إلا أن تقبلوا الحماية من دولة حرة كبرى هي بريطانيا !

وأن الحياد الذي ينادي به جمال عبد الناصر لا أمل فيه !

فهل ينطلي هذا علينا نحن العرب ؟

وهل نعود فنلدغ نحن العرب من بريطانيا الشريفة الكبرى ، وأخيراً الحرة. . . . ؟

وهل نخدع نحن العرب بدموع التماسيح وولولة الاستعمار ؟

وهل يؤثر هذا في وثبتنا وانتفاضتنا من أجل الحرية والاستقلال ؟

لقد نادينا بالحرية والاستقلال منذ وقت طويل ، ولم تكن روسيا قد ظهرت بعد في الميدان .

وأعلن جمال عبد الناصر في باندونج أن السياسة العربية يجب أن تنبثق من داخل الأمة العربية .

وأن الدفاع عن العرب يجب ألا يضم أية دولة من الدول الصغرى إذا ما تحالفت مع الدول الكبرى أصبحت ألعوبة في يدها ويصبح هذا التحالف وجهًا جديدًا من وجوه الاستعمار .

ولهذا قاومت مصر حلف بغداد لأنها كانت تعرف أغراضه ومراميه ، ولأنها كانت تعلم نوايا بريطانيا في أن تصنع الأمة العربية كلها تحت حمايتها وفي منطقة نفوذها بواسطة حلف بغداد .

إن العرب جميعًا يعلمون أن العلاقة بينهم وبين روسيا ليست علاقة أحلاف أو مواثيق كميثاق بغداد بين العراق وبريطانيا ، فكيف يمكن لعاقل أن يعجب من بيان روسي يذكر إسرائيل بين دول الشرق الأوسط وفجأة لا يجد أمامه من سبيل إلا أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية ، تحت حماية بريطانيا الحرة الكبرى ؟

إن البيان الروسي حينما يتكلم عن إسرائيل كدولة في الشرق الأوسط ولم يضف جديدًا ، فنحن نعلم أن هناك سفيرًا إسرائيليًا في موسكو وسفيرًا

روسيًّا في إسرائيل .

ومصر التي اختارت لنفسها الحرية والاستقلال .

ومصر التي رفضت أن تبيع الحرية والاستقلال لبريطانيا من أجل السلاح .

ومصر التي طلبت الأسلحة من أمريكا وإنجلترا وفرنسا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا وهم جميعًا يعترفون بإسرائيل .

ومصر التي وافقت على شراء الأسلحة حينما وجدتها .

مصر هذه لم تكن تنساق وراء الأوهام ولم تكن تضع في خطتها أن روسيا ستكون طوع أمرها فتسحب اعترافها بإسرائيل ، ولكنها كانت تشعر أن هناك تحولاً كبيراً لابد أن يقع .

فإن احتكار السلاح قد انتهى .

احتكار السلاح بواسطة بريطانيا .

احتكار السلاح الذي تشتري به بريطانيا استقلال الدول وحرية الشعوب.

احتكار السلاح الذي يمكن لبريطانيا من أسباب السيطرة والتحكم في رقابنا ورقاب العباد في كل دولة تريد الحرية .

ألم تدخل العراق حلف بغداد من أجل السلاح كما قال نوري السعيد فأصبح السلاح أداة لضياع الاستقلال وبسط النفوذ البريطاني وهو في الأصل أداة لحماية الاستقلال ؟

ألم يصبح السلاح أداة لتمكين الاستعمار البريطاني في العراق ، وهو في الأصل أداة للقضاء على الاستعمار ؟

إن بكاء الاستعمار وأعوان الاستعمار لأن روسيا ذكرت إسرائيل في بيانها لن ينطلي علينا ، وإلا فلنسحب بريطانيا بإسرائيل وتغلق سفارتها في إسرائيل .

إن دعاية الاستعمار وأعوان الاستعمار لا تبغي إلا أن تبث اليأس في نفوس العرب وتثبط من هممهم وتقضي على انتفاضتها التحريرية الكبرى .

إن سياستنا قامت على بعث عربي يعتمد العرب فيه على أنفسهم وعلى قوتهم وعلى عزيمتهم وعلى صبرهم وعلى كشفهم لألاعيب الاستعمار .

ولكن هذا لن ينطلي علينا .

فنحن نشعر بقوتنا ونعلم على التحديد أهدافنا ، وقد قال جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة :

« إن لنا من قوميتنا ما يمكننا من أن نفرض وجودنا » .

« وإن قوتنا في قوميتنا العربية » .

« وإن قوتنا في مواردنا الغنية ... » .

« وإن قوتنا في موقعنا الاستراتيجي » .

ونحن لن نحتاج إلى حماية بريطانيا أو أمريكا أو روسيا أو مساندة أي منها ، ولن نطلب من بريطانيا أو أمريكا أو روسيا أن تحقق لنا استقلالنا أو أن تبعث لنا قوميتنا .

إننا جميعًا صممنا على القضاء على الاستعمار والفوز بالحرية . . .

وحينما صممنا على القضاء على الاستعمار وأعوان الاستعمار ، كنا نعلم يقينًا أن هذا لن يتحقق إلا بسواعدنا وعرقنا وجهدنا ، ونحن نسير في هذا السبيل بقوة وعزم . . . .

من هم المرتشون ؟

لقد كشف الاستعمار عن نفسه بسرعة عجيبة على غير عادته .

فإن تخبط بريطانيا وانهيار أعصابهـا نتيجة لنجاح حركات العرب الوطنية القومية الاستقلالية وانهيار خطط الاستعمار ليظهر للعالم أجمع ماذا تبيت بريطانيا للعرب ، وما هي أطماع بريطانيا في السيطرة والتحكم والاستغلال .

أما الفصل الجديد من رواية الاستعمار والعرب ، فهو فصل استغلال البيان الروسي لتضليل العرب وبث روح الهزيمة واليأس في نفوسهم .

فإن الاستعمار يعلم أن انطلاق القومية العربية التحريرية وهي تشعر بقيمتها وعزتها وكيانها يمثل الخطر الأكبر على الاستعمار في سبيل تحقيق مشاريعه الفتاكة ، وفي سبيل تحقيق أطماعه وأحلامه الجشعة الاستغلالية .

فإن ظهرت القومية العربية الوطنية وانطلقت تثق بنفسها وتثق بقوتها فلن يمكن للاستعمار أن يقاوم ولابد له من الانهيار ، ولن يغنيه أعوان الاستعمار فتيلاً مهما دفع له من مال ومهما ساندهم بقوته ونفوذه وضغطه ومؤامراته .

لقد صمدت القومية العربية الاستقلالية في مصر وهزمت الاستعمار وأعوان الاستعمار .

كما صمدت القومية العربية الاستقلالية في سوريا في وجه الاستعمار ودسائس الاستعمار وضغط الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وصمدت القومية العربية الوطنية في لبنان ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وغضبت القومية العربية في الأردن فدافعت عن كيانها ووجودها فأسقطت أعوان الاستعمار ، ثم ما لبثت أن صفعت الاستعمار فارتد مذعوراً منها .

ثم عاجلته القومية العربية بطرد جلوب طرد الكذب .

ومرغت القومية العربية الوطنية الاستعمار وخرافة الاستعمار في الطين والأوحال .

وخرجت القومية العربية من المعركة تشعر بكيانها وقوتها بل تشعر أنها أشد قوة وعزمًا .

ووقفت القومية العربية الوطنية - في المملكة السعودية ضد عدوان الاستعمار ودسائس الاستعمار وأعوان الاستعمار وحرب الأعصاب التي شنها الاستعمار فمضت تلك القومية العربية بعد أن عرفت عدوها الحقيقي الذي دفع أعوانه لاحتلال البوريمي بدافع الطمع والجشع .

وصمدت القومية العربية في اليمن ضد أطماع الاستعمار وشعرت أن درعها هي في التضامن العربي فصمدت القومية العربية في اليمن ضد العدوان البريطاني من محميات عدن وضد دسائس الإنجليز على حدود اليمن.

وصمدت القومية العربية في السودان فاختط السودان لنفسه سياسة استقلالية غربية قومية رغم دسائس الاستعمار وألاعيب الاستعمار .

وانتصرت القومية العربية في ليبيا فأعلنت أنها لن تسمح باستخدام أراضيها في أي عدوان ضد العرب .

وانتصرت القومية العربية في تونس وفي مراكش .

ولم تثن أعمال الإرهاب والتقتيل والإبادة في الجزائر ، أقول : لم تثن هذه الأعمال الوحشية القومية العربية عن أن تدافع عن كيانها ووجودها .

وصمدت القومية العربية في البحرين رغم الخطة الموضوعة لهجرة الأجانب إليها حتى يقضوا على القومية العربية فيها .

وشعرت القومية العربية بقوتها فأنذرت سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا العظمى جدًا وسجنته أربع ساعات في عربته رغم الرصاص ورغم الإرهاب وبينت له أن القومية العربية قوية جارفة في كل مكان حتى ولو كان فيه مستشار بريطاني كالمستر بيلجريف المشهور .

وصمدت القومية العربية في عدن رغم التهديد والإرهاب ورغم الرصاص والوعيد ، صمدت وهي تشعر بقوتها وتشعر بكيانها .

فإذا أراد الاستعمار أن يخدع العرب ويقنعهم بأن انطلاقتهم التحريرية الكبرى مستمدة من روسيا ، وأنها تستمد وجودها من الخارج وأن بقاءها معتمد على تأييد روسيا أو من دولة خارجية ، فهو لا يخدع إلا نفسه .

فالقومية العربية التحريرية ليست مستوردة من الخارج ولكنها منبثقة من صميم الأمة العربية ، ومن آمال الأمة العربية ومن كفاح الأمة العربية المتوهج حتى اليوم .

إن القومية العربية تعرف مقوماتها وتعرف طريقها ، فهي تنبثق من وحي عربي خالص لا من وحي أجنبي .

ونقول أيضًا للاستعمار تعال نبين لك الأمور إن كنت تخدع نفسك ، وتعال نبين لك الأمور إن كنت تريد أن تخدعنا ؟

متى وعدتنا روسيا أنها ستسحب اعترافها بإسرائيل ؟

بل هل انتظرنا من روسيا أن تسحب اعترافها بإسرائيل وتسلمنا فلسطين على طبق من الذهب ؟

وهل يعتقد الاستعمار أننا كنا من البساطة بحيث نضع هذا في حسابنا ؟

إن كل ما ننتظره من روسيا هو أن تتعامل معنا بدون قيد ولا شرط حتى نقضي على تحكم الاستعمار .

تحكمه في بيع السلاح الذي طلب استقلالنا وحريتنا ثمنًا من أجل كمية قليلة منه .

تحكم الاستعمار في بيع السلاح ، الاستعمار الذي رفض أن يبيعه لنا لنحمي أنفسنا ضد عدوان إسرائيل وتهديد إسرائيل إلا إذا بعنا له استقلالنا وحريتنا بثمن بخس وسلمنا له رقابنا ، ولبينا أوامره ونواهيه .

إننا كنا ننتظر من روسيا أن تتعامل معنا بدون قيد ولا شرط في الميدان الاقتصادي حتى نتحرر من ضغط الاستعمار الاقتصادي وحتى نؤمن حريتنا الاقتصادية وحتى نتخلص من سيطرة الاستعمار الاقتصادية .

فهل كان الاستعمار يريد منا أن نفرض شروطًا على روسيا إذا وافقت على أن تخلصنا من احتكار السلاح والسيطرة الاقتصادية الاستعمارية فنقول لها :

لن نقبل أن نتحرر ونشتري السلاح الذي يحمينا من تهديد إسرائيل وعدوان إسرائيل وصحف إسرائيل بدون قيد ولا شرط ؟

أم كان يريد منا أن نقول لروسيا أننا لن نقبل أن نتخلص من احتكار السلاح الاستعماري الذي ندفع من أجله استقلالنا وحريتنا ؟

لعل الاستعمار كان يريدنا أن نقول لروسيا : إننا لن نقبل أن نتعامل

اقتصاديًّا بدون قيد ولا شرط إلا إذا سحبت اعترافك بإسرائيل واستدعيت سفيرك .

يا للسخافة ، ويا للتفاهة ، منطق الاستعمار الذي يعتقد أن نحيبه اليوم وبكاءه على فلسطين ينطلي علينا أو يؤثر على انتفاضتنا التحريرية موهمًا إيانا أن كفاحنا مرتبط ببيان يصدر من وزارة الخارجية الروسية تذكر فيه كلمة إسرائيل !

والآن ماذا عمل الاستعمار من أجل فلسطين ؟

وماذا عمل الاستعمار من أجل العرب ؟

وماذا عمل الاستعمار من أجل إسرائيل ؟

إن الاستعمار يحمي حدود إسرائيل المغتصبة الحالية بالتصريح الثلاثي الذي أعلنه سنة ١٩٥٠ .

فقد أعلن الاستعمار في هذا التصريح أن إسرائيل باقية كما هي رغم قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالتقسيم ، هذه القرارات التي يبكي عليها الاستعمار اليوم ويتهم روسيا أنها تنكرت لها .

وأعلن الاستعمار مرات ومرات أنه سينضم إلى إسرائيل ضد أية دولة عربية تحاول الاعتداء على خطوط الهدنة رغم حلف بغداد ، ورغم تحالفه مع العراق الدولة العربية التي جرحت في فلسطين .

بل تمادى الاستعمار وقال إنه لن يتقيد في تصرفاته بالأمم المتحدة وأنه يعطي لنفسه الحق في التدخل محافظة على حدود إسرائيل المغتصبة .

بل إن إنجلترا حينما رأت أن أمريكا لا تحدد موقفها أعلنت أنها تعد الخطط للتدخل بمفردها ضد أي دولة عربية تحاول العدوان على إسرائيل .

إن الاستعمار الذي كرر هذا الإعلان منذ صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية لمصر قد كشف نفسه بنفسه وفضح أمره بيده ، فقدكان يعد إسرائيل بالسلاح ويضع في خطته أن إسرائيل لابد أن تتعادل في القوة مع الدول العربية مجتمعة بل ولابد أن تتفوق عليها .

وكانت إسرائيل تتمادى في العدوان .

اعتدت على الأردن وقتلت من قتلت في قبية وغير قبية ، واعتدت على سوريا .

واعتدت على مصر ، وتمادت في العدوان والتهديد .

وقال بن جوريون : إننا سنؤدب العرب ونفرض عليهم إسرائيل فرضاً ، ونفرض عليهم شروطنا فرضًا .

وقال زعماء إسرائيل لابد لإسرائيل أن تتوسع ، فالوطن الموعود يمتد من النيل إلى الفرات .

فماذا كان رد فعل الاستعمار ؟

الأسف على العدوان ، والأسف فقط ؟

فهل أعلن الاستعمار في تلك الأوقات كما يعلن اليوم أنه سيتدخل ضد العدوان ؟

بل هل تدخل الاستعمار ليوقف العدوان ؟

أبدًا .

لم يعلن الاستعمار شيئًا من ذلك لأنه كان يحتكر السلاح وكان يعلم أن التفوق لإسرائيل ، وأن العدوان وقف على إسرائيل .

وهل أثار الاستعمار كما يهذي اليوم قضية السلام في الشرق الأوسط؟

إن الاستعمار يعتقد أن السلام في الشرق الأوسط يعني العدوان على العرب وحرمان العرب من القوة والسلاح ومد إسرائيل بالقوة والسلاح .

أما اليوم وبعد أن شعر الاستعمار أن ربيبته إسرائيل قد فقدت التفوق ، وأصبح العرب في وضع يمكنهم من تأديبها ، وأصبح العرب يشعرون بقوتهم وبوجودهم واستقلالهم .

حينئذ فقط فقد الاستعمار رشده وقال إن السلام مهدد في الشرق الأوسط .

وبكى الاستعمار ولطم الخدود على السلام في الشرق الأوسط .

وأعلن مستر إيدن أن بريطانيا ستقاوم العدوان وستحمي إسرائيل .

وأصيب مستر جيتسكيل الصهيوني بالهستيريا ووقف ينادي بأن إسرائيل لابد أن تبقى وأن بريطانيا لابد أن تحمي إسرائيل .

ووقف نواب بريطانيا عملاء إسرائيل أعضاء الشركة اليهودية الصهيونية يدافعون عن إسرائيل ويسبون العرب، ينادون بالويل والثبور لأية دولة عربية تجرؤ على المساس بإسرائيل أو حتى مجرد الرد على عدوان إسرائيل .

وقف النواب البريطانيون يتهمون الوطنية العربية بأنها نتيجة للرشوة ولا يخجلون من موقفهم ومن حقيقتهم .

تعالوا إذن وردوا إن كانت لديكم شجاعة على ما سأقول .

إني أتهم هؤلاء النواب البريطانيين الذين يدافعون عن إسرائيل ويهددون العرب . . .

أتهمـهم بالرشوة للعـمل لصالح دولة إسـرائيل ، أتهمهـم بالرشوة عن طريق الشركات اليهودية الصهيونية .

إني أتهم الديموقـراطية البـريطانية وأطالب الحكومـة البريطانيـة أن تعلن أسماء الشركات التي يعمل بها هؤلاء المحامون عن إسرائيل .

وعندها سـيعلم العـالم إلى أي درك انحدرت الديموقـراطية في بريطانـيا بفعل المال الصهيوني والرشوة الصهيونية .

إنى أتهم مـستر جـيتـسكيل زعيم حـزب العمل البـريطاني بأنه صنيـعة الصهيونية العالمية وأنه أجير عند الصهيونية العالمية .

والكل يعلم أنه متزوج من يهودية صهيونية متعصبة .

لقد اتهـمتنا بريطانيا ونواب بريطانيـا وقالوا : إن القوميـة العربية نتيـجة للرشوة.

فهل يمكن أن يرتشي مـائة مليون عربي من المحـيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ؟

لقد قـيل هذا في صحف بريطانيا وفي مـجلس العموم فـسكتنا وقلنا : عسى أن يقلعوا .

ولكن بعـد ذلك كررت محطـة الإذاعة البريطـانية هذا القول فـآن لنا أن نعرف من هم المرتشون .

هـل هـم المـائة مليـون عـربـي أم هـم صنائع إسـرائيـل فـي مـجلس العموم ؟

يا لفضيحة الديموقراطية البريطانية العريقة جداً في القرن العشرين!

هذا هو الاستعمار الذي يرغب منا في أن نتحالف معه .

وهذا هو الاستعمار الذي يتباكى اليوم على البيان السوفيتي وإنى لأتساءل :

من الذي أقام إسرائيل ؟

ومن الذي وعد الصهيونيين بفلسطين ؟

وإلى أية جنسية ينتمي بلفور الذي خان العرب حينما وقفوا إلى جانب بريطانيا في الحرب الأولى ؟

ولماذا أقام الاستعمار إسرائيل بطريقة لم تحدث أبدًا عبر التاريخ ؟

فلأول مرة في تاريخ بريطانيا تتخلى عن انتدابها وترحل في سكون .

فهل تخلت بريطانيا عن فلسطين لأهل فلسطين وعرب فلسطين ؟

أم أن بريطانيا كانت تعلم أن عرب فلسطين سيتركون لمصيرهم المحتوم بعد أن أباحت لتلك العصابات حمل السلاح وصنعه وشنقت كل عربي يوجد لديه سلاح .

إن بريطانيا كانت تعلم أن العرب يتركون للإبادة .

ولكنها الخطة الموضوعة لإبادة القومية العربية والقضاء عليها قضاء كاملاً .

هذا هو سبيل الاستعمار . قضاء على القومية العربية .

وخلق إسرائيل ، وإمداد إسرائيل بالسلاح وحماية إسرائيل ثم السيطرة على العرب ووضعهم تحت النفوذ الاستعماري تحت اسم المواثيق الدفاعية .

تحت اسم ميثاق بغداد ، أحدث صورة من صور الاستعمار .

وما هو سبيل العرب لتحقيق حريتهم واستقلالهم ؟

إن العرب يعتمدون على سواعدهم ، وعلى قوميتهم وعلى حركتهم التحريرية الكبرى .

إنهم لا يعتمدون على روسيا ، ولكنهم يتعاملون معها للقضاء على احتكار الاستعمار للسلاح ، وللقضاء على سيطرة الاستعمار الاقتصادية .

وأن سلاح العرب الأول هو قوميتهم فهم يعلمون أن قوتهم في قوميتهم وليست في بيان لدولة أجنبية .

فإذا أراد الاستعمار أن يفت في عضدهم أو يبث في نفوسهم الهزيمة واليأس مدخلاً في روعهم أن قوميتهم وثورتهم التحريرية الكبرى تعتمدان على عون خارجي ، وأن روسيا كانت تمثل هذا العون الخارجي ، وأنها الآن قد تراجعت عن خطئها وتخلت عن تأييد العرب فليس أمام العرب من سبيل إلا أن ينضووا تحت حماية الاستعمار .

إذا أراد الاستعمار هذا قلنا له :

إن هذا لن ينطلي علينا فإننا نعرف سبيلنا في التحرير ونعرف سبيلنا في حل قضايانا .

ونعرف أن حركتنا التحريرية الكبرى لا تستورد من الخارج ولكنها تنبثق من الداخل .

تنبثق من وعي العرب ، ومن وطنية العرب ، ومن عزم العرب ، ومن وحدة العرب .

عدنا يا صلاح الدين

كان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى .

واجتمع المنتصرون حول مائدة القرصان المشهورة وبدؤوا يوزعون الأسلاب .

ومن قبل هذا الاجتماع كانت الأمم الصغيرة قد صدقت مبادئ الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة التي نادى بها وقتذاك والتي تنادي بالحرية والاستقلال وتقرير المصير .

وعلى مائدة القرصان خفت صوت الرئيس ولسن رويداً رويداً إلى أن تلاشى .

وفوجئت الأمم الصغيرة بجيوش المنتصرين تقتحم عليها أرضها باسم الانتداب تارة ، وتارة أخرى باسم مناطق النفوذ التي اتفق القراصنة على اقتسامها في أنحاء كثيرة من العالم .

وكان نصيب الأمة العربية أن مزقت أشلاء ، فاحتفظت إنجلترا بمصر وفلسطين والعراق والأردن . . .

واقتحمت جيوش فرنسا المظفرة جداًّ سوريا ولبنان بعد أن احتفظت بتونس والجزائر ومراكش .

نعم ، اقتحمت جيوش فرنسا المظفرة جداًّ سوريا ، وقاتل السوريون قتال الأبطال ولم يدخل الفرنسيون دمشق إلا على جثة آخر مقاتل منهم ، قاتل السوريون دفاعًا عن أرض الآباء والأجداد رغم تفوق القرصان الفرنسي في العدة والعتاد .

وحين دخل الجنرال الفرنسي الأعرج دمشق توجه من فوره إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقف في صلف أمام القبر وقال :

« **لقد عدنا يا صلاح الدين ...** ».

ونقلت البرقيات هذه الجملة وقتذاك إلى أوروبا ودول الغرب فهللوا طربًا ونشوة لأنهم انتصروا أخيرًا على صلاح الدين . . .

لم يستطيعوا أن ينتصروا عليه وهو حي لأنهم كانوا يجثون أمامه ، فاحتفلوا بانتصارهم عليه وهو ميت لكي يشبعوا في نفوسهم غريزة الحقد والتشفي والصغار .

لقد عدنا يا صلاح الدين .

عبارة حفظها السوريون جيلاً بعد جيل ، وحفظناها نحن العرب معهم جيلاً بعد جيل .

عبارة تروى لنا تاريخين وتروى لنا موعظتين .

تروي لنا تاريخًا مشرقًا ناصعًا حين كان صلاح الدين يحكم مصر من سوريا ويحكم سوريا من مصر ، وكيف أن اتحاد مصر وسوريا كفيل بأن يقهر الغزاة حتى ولو كانوا كل أوروبا . . . .

وتروي لنا تاريخًا رائعًا لوحدة العروبة وعزتها ومجدها ، وكيف أن فرسان مصر كانوا هم فرسان سورية وكيف أن أبناء سوريا كانوا هم فرسان مصر .

تروي لنا تاريخ الدم المشترك الذي بذلته سوريا وبذلته مصر على جدار الشام دفاعًا عن الحق والخير وأرض الآباء والأجداد .

فهل كان صلاح الدين متعصبًا ؟

إن أعداءه يشهدون له قبل أصدقائه أنه كان قائدًا نبيلاً وفارسًا شهمًا ، بل إن الغربيين لا يزالوان إلى اليوم يضربون المثل بشهامة صلاح الدين وخلقه العالي الأشم .

كان يقابل تعصب الصليبيين بسماحة المسلم العربي ، ولكنه لم يسمح أبدًا بأن تدنس أرض العروبة بأقدام الأجنبي .

كان يحارب دفاعًا عن مقدسات العرب وشرف العرب ومستقبل العرب .

وانتصر صلاح الدين .

ولم يكن كيان مصر في ذلك الوقت إلا من كيان سورية وكيان سورية إلا من كيان مصر .

ودارت الأيام دورتها ومات صلاح الدين .....

وجاء دور الأتراك .

وخرجت مصر وسورية لتدفع البلاء في مرج دابق .

واختلطت دماء سورية ومصر جنبًا إلى جنب في تلك المعركة دفاعًا عن وطن العروبة ومقدسات الأجداد .

إن اتحاد مصر وسورية حقيقة تاريخية يحتمها التطور ، فالأصل هو أن الشعبين شعب واحد امتزجت عروقه وواجه المحن والانتصارات جنبًا إلى جنب ....

فالدارس يرى عبر التاريخ أن آمال الشعبين كانت دائمًا واحدة ، وأن المعارك التي خاضها الشعبان كانت واحدة ، وإن أعداء سورية كانوا دائمًا

أعداء مصر ، وإن لغة الشعبين واحدة ، وحضارة الشعبين ومقوماتها واحدة، وتاريخ الشعبين واحدة ، فضلاً عن رباط الدم والقربى والدين والأصل .

فاتحاد سوريا ومصر إذن علميًا وتاريخيًا ونظريًا حقيقة لابد منها .

أما الفترة الماضية التي ابتعدت فيها سورية عن مصر فلم تكن إلا مرحلة استثنائية فرضها الاستعمار على الشعبين ضمن خطته الكبرى التي أراد بها تمزيق أوصال الأمة العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي .

بدأت هذه المرحلة بعزل مصر عن الجناحين وهما المغرب العربي وسوريا وبلاد المشرق العربي .

وتولت فرنسا أمر عزل المغرب العربي من جهتها بعد أن عزلت إنجلترا مصر ، ثم قسم المشرق العربي بين إنجلترا وفرنسا بعد الحرب الأولى على النحو الذي ذكرته في صدر هذا المقال .

واليوم وبعد أن زال الاستعمار من مصر ومن سورية بعد تلك المرحلة الاستثنائية في تاريخ الشعبين يصبح من الطبيعي ، أن يعودا كما كانا .

ويصبح من الطبيعي أيضًا ونحن نرى الاستعمار يترنح في بقية أقطار العروبة أن نرى الأمة العربية تعود بالتدريج إلى سابق مجدها أمة واحدة ووحدة متماسكة ستجتمع أقطارها بحكم التطور حين تتخلص هذه الأقطار من استبداد الاستعمار الذي يعزلها عن بعضها .

لقد أقام الاستعمار إسرائيل في قلب أرض العرب لأن الأمة العربية كانت ممزقة من داخلها وكان حكام العرب يخضعون للاستعمار وليس لنداء الشعوب .

واليوم تشكل إسرائيل خطرًا داهمًا على بيت كل عربي وعلى رزقه وأرضه وسمائه .

ولا سبيل للأمة العربية اليوم أمام هذا الخطر إلا نفس السبيل الطبيعي الذي سلكه صلاح الدين يوم أن وحد الكلمة ولقن الأعداء درسًا خالدًا في الدفاع عن وطن العروبة وأرض الأجداد .

فمن أجل شرف العروبة تتحد سورية ومصر .

ومن أجل مقدسات العروبة تتحد سورية ومصر .

ومن أجل وحدة العروبة تتحد سورية ومصر .

اتحادًا يعيد لنا مجدنا الذي اندثر .

اتحادًا يجبر كل قرصان أجنبي على أن يجثو أمام قبر صلاح الدين .

ويومها سيهتف العرب وحدهم من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق :

لقد عدنا يا صلاح الدين

عدنا نحن أبناءك إلى طريقك وهديك ومجدك وخطواتك .

التفرقة... سلاح الاستعمار

اكتوينا نحن العرب بأساليب مدرسة الاستعمار قرونًا طويلة ، وعرفنا من قاموسهم اصطلاحات طبقوها علينا فمزقوا أوطاننا وشتتوا شملنا .

وعلى رأس هذه الاصطلاحات اصطلاح « فرق تسد » .

وكانت مصيبتنا نحن العرب مصيبتين :

الأولى : حين فرقوا بين الشعوب .

والثانية : حين فرقوا بين أبناء الشعب الواحد .

أما الأولى فقد نتج عنها أن تقطعت أوصال الأمة العربية ، ففرنسا تعزل تونس والجزائر ومراكش عن جسم الأمة العربية ، ولا تكتفي فرنسا بذلك بل بدأت على الفور حملة مدبرة منظمة لكي تقضى على اللغة العربية فجعلتها لغة فرعية وجعلت الفرنسية في وطن عربي هي اللغة الأصلية !

وحاربت فرنسا الدين . واغتصبت أوقاف المسلمين فاقتطعتها للمستعمرين الفرنسيين .

وإنجلترا تعزل مصر وفلسطين والأردن والعراق والخليج العربي كل على حدة .

قالت إنجلترا لمصر : أنتم لستم عربًا وإنما أنتم فراعنة .

وسلمت إنجلترا فلسطين لليهود لكي يقيموا دولتهم على أرض العرب وجماجم العرب .

وحاولت إنجلترا ـ ولا تزال تحاول ـ تحريض الأردن والعراق لكي ينفصلا

عن المجموعة العربية ويدخلا تحت سيطرة أحلافها الاستعمارية .

وباعدت بين أمراء الخليج العربي بتلك الاتفاقيات التي عقدتها معهم على أساس أن تتولى حمايتهم ضد بعضهم وهم أهل وعرب .

فماذا جنت هذه الفرقة على العرب ؟

إن أول نتيجة مروعة لهذه الفرقة كانت مأساة فلسطين ، لقد اقتطع من قلب الأمة العربية جزء أعطى للصهيونيين ، اقتطع هذا الجزء جهاراً نهاراً وبمساعدة إنجلترا وأمريكا وتأييدهما في السر والعلن و . . .

وأصبحنا نواجه كارثة تهدد أوطان الأمة العربية جمعاء لأن اليهود يطالبون بالنيل والفرات ، وأرض المدينة المنورة على السواء .

وكانت النتيجة الثانية أن إنجلترا استطاعت أن تنفرد بكل شعب على حدة وفي هدوء بعد أن فرضت ستاراً حديديًا بين هذه الشعوب فتحكمت وسيطرت ، واستنزفت مواردنا وعطلت تقدمنا وفرضت علينا إرادتها ضد مصلحتنا بعد أن عرت وجوعت شعوبنا .

ولو أننا كنا جسمًا واحدًا كما هو مفروض أن نعيش لما استطاعت بريطانيا أو أمريكا أو فرنسا أن تتسلل إلينا ثم لم تلبث أن طالبت بالسيطرة علينا . . .

وكانت النتيجة الثالثة أن عشنا في الماضي وكل منا يحمل الشكوك التي بذرها المستعمرون في نفوسنا بعضنا ضد بعض .

وكانت المصيبة الثانية مكملة للأولى حين تفرق أبناء البلد الواحد على أنفسهم .

واليوم ونحن نواجه الاستعمار وقد برئنا من كل هذه العلل أو أكثرها ، علينا أن نستعد لكي نواجه جملة أخرى من حملات فرق تسد .

علينا نحن العرب حكامًا وشعوبا أن نستيقظ وأن نكون على حذر .

فعقلية الاستعمار لم تتغير وأساليب الاستعمار سوف لا تتغير .

والاستعمار يريدنا أن تعود شعوبنا متنافرة ، وحكامًا متحاسدين حتى يستطيع أن ينفرد بكل منا كما كان على حدة ، والاستعمار سيسعى بكل طاقته لكي يزرع الشكوك والمخاوف ، وقد بدأها فعلاً بذلك الحديث الخرافي الذي يردده عن إمبراطورية جمال عبد الناصر ، لأن جمال عبد الناصر يطلب الحرية لكل شعب عربي من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي .

والاستعمار سيعمل ليل ونهار لكي يشكك في نوايا بعضنا للبعض .

سنواجه يا أهلي يا عرب أخطر حملة للتفرقة والتشكيك ، وسيستعمل الاستعمار فيها كل أسلحته من الكذب إلى الخداع إلى التضليل إلى المساومة.

فكونوا على حذر يا أهلي يا عرب .

اذكروا تاريخ الثورة العربية ودور إنجلترا فيه الذي أسفر عن قيام إسرائيل.

واذكروا اعتداءات إسرائيل على قبية ودير ياسين .

اذكروا أحلام إسرائيل في مصر والعراق وفي السعودية ، وقد قامت أمريكا وإنجلترا وإسرائيل وما زالت أمريكا وإنجلترا تشجعان إسرائيل .

اذكروا السلاح الذي هو حلال لإسرائيل وحرام على العرب .

اذكروا قتلاكم وشهداءكم في الجزائر وفي مصر وفي دمشق وفي لبنان وفي البوريمي وعلى حدود اليمن وفي عمان وفي الأردن وفي العراق .

واذكروا يا أهلي يا عرب حكامًا وشعوبًا أننا لا نطالب بغير حريتنا في أوطاننا وسيادتنا على أرضنا .

واحذروا المكيدة .

واحذروا الدسيسة .

واحذروا الفرقة لكي لا يسود ثانية مستعمر على أرضكم .

الفصل الخامس

الجبهة المسلحة

يا عرب

الله أكبر ، ولك يا رب الحمد من العرب

الله أكبر ، ولك يا رب الشكر من العرب

إن الجبهة العربية ، حلم العرب من قديم الزمن ، أصبحت اليوم حقيقة واقعة .

الجبهة المسلحة الموحدة المصالح والأهداف ، والمستعدة ـ من هذه اللحظة لسحق العدوان ، والمتحفزة ـ من هذه اللحظة ـ لمواجهة الافتئات على الحقوق والصامدة ـ من هذه اللحظة ـ أمام السيطرة والتدخل الأجنبي ، والزاحفة ـ من هذه اللحظة ـ نحو أهداف الشعوب ، لا أهداف أعداء الشعوب ! الشعوب العربية التي كانت ـ قبل ظهور الجبهة الجديدة ـ فريسة لصهيون ولحلفاء صهيون ، ومطية لكل أفاق مغامر ، متسلل إلى أرض العرب !

من هذه اللحظة ، سيتغير التاريخ .

من هذه اللحظة ستكتب صفحات جديدة لكفاحنا المقدس الذي مارسناه طوال عشرات السنين ، ودفعنا ثمنه آلاف الشهداء ، في فلسطين وغير فلسطين ، في معارك الاستقلال وتقرير المصير !

فمن هذه اللحظة ، سنقرر ـ نحن العرب ـ مصيرنا ، أما الذين تركوا مصيرهم ، في أيدي الأجنبي ، فهؤلاء أيضًا لن تتخلى عنهم ، لأنهم عرب من دمنا ولحمنا ، يشتركون معنا ، رغم كل شيء ، في المصلحة والهدف والمصير !

هؤلاء الذين أغراهم المستعمر ، بالبعد عن الجبهة العربية الجديدة ، سنظل دائمًا بجانبهم ، نحميهم من أنفسهم ، ومن الشيطان الذي يدفعهم إلى الهاوية . . . هم وشعوبهم !

يا عرب ، لم يعد الزمن عدواً لكم ، بل أصبح نصيراً وحليفًا ، فكل دقيقة تمر ـ منذ الآن ـ ستحمل لكم القوة والمهابة والاحترام .

لن نعيش بعد اليوم ، كما عشنا من قبل ، جامدين صاغرين مستسلمين، ينهش فينا الظلم والعدوان والذل ، فقد ولدت الجبهة المسلحة !

ولدت الجبهة التي ستحمينا ، ولدت الجبهة التي سترد العدوان بالعدوان!

لن نعطي خدنا الأيسر لأحد ، ولا الأيمن أيضًا ، بعد أن وقع سعود والقوتلي وجمال ، وثيقة تحرير العرب ، فأصبحنا قادرين على رد الصفعات، بالنار والحديد ، في هذه المرة !

يا عرب ، يا شعوبًا شربت كؤوس المر على الدوام ، ويا شعوبًا نكبت بالخونة والعملاء وبالظالمين ، ويا شعوبًا ساقوها في الماضي إلى حتفها ، ويا شعوبًا جردوها على الدوام من حقوقها ، ويا شعوبًا منعت من تقرير مصيرها .

اليوم يفتح لكم التاريخ بابه الكبير لتصلوا إلى الحق ، ولتنعموا بالعدل ومن أمامكم جبهتكم المسلحة ، تضرب في الحال وبلا هوادة أو مراوغة ، العدو أن حاول غلق الباب !

نحن لا نهدد مصير أحد ، ولا نريد اغتصاب حقوق الغير ، نحن العرب نريد الحرية ، نريد العدل ، نريد احترام حقوق الإنسان ، نريد كما قال سعود والقوتلي وجمال ، في بيانهم التاريخي العظيم ، العمل للسلام،

وتحقيقه والمحافظه عليه بالتعاون الصادق بين الدول على أساس الاستقلال والمساواة التامة .

نريد كما قال سعود والقوتلي وجمال في بيانهم المشترك ،تنفيذ قرارات مؤتمر باندونج ، وتجنب الأمة العربية ، مضار الحرب الباردة ، وحفظ كيان الأمة العربية ، والدفاع عنها ضد أخطار العدوان الصهيوني ، والسيطرة الأجنبية !

نريد كما قال الثلاثة الكبار ، الدفاع عن الدول العربية كلها على هدى أمنها الحقيقي ، وخارج نطاق الأحلاف الأجنبية ، تلك الأحلاف التي تستخدمها الدول الكبرى ، لخدمة مصالحها الذاتية ، مضحية في سبيل ذلك، بقضايانا وأمانينا ، وحقوقنا نحن العرب !

إن إرادتنا ـ نحن الشعوب العربية ـ هي التي أوجدت الجبهة العربية المسلحة ، هي التي جعلتها أمرًا محتومًا استمعوا إلى الثلاثة الكبار ، وهم يقولون :

« لقد شد من عزمنا ، وقوى روحنا ، ما لاحظناه بارتياح ، من زيادة الوعي الوطني في الأمة العربية ، وأننا لننظر في إعجاب واطمئنان ، إلى الدور العظيم ، الذي أصبح الرأي العام العربي ، يقوم به ، في توجيه الحوادث ، بيقظة مستنيرة وشجاعة حكيمة ، واستطعنا بذلك ، أن نجمع إرادتنا على خطة كاملة ، نواجه بها كافة الاحتمالات والمفاجآت .

يا عرب ، نحن الشعوب العربية ، ولا أحد غيرنا ، الذين نوجه الحوادث ، وذلك هو دورنا العظيم .

لم يعد هناك من يستطيع فرض إرادته علينا .

لم تعد وحدتنا مزيفة ، إنها اليوم حقيقة ، لأن الرأي العام العربي ، النابض بمصالح العرب هو الذي صنع الجبهة العربية الجديدة المسلحة .

صنعها وحدد خططها وبرنامجها في العمل ، كما حدد أهدافها .

إن إرادة الشعوب اليوم ، هي التي تحدد كل الطرق أمام الحكام والقادة .

أما الذين لا يؤمنون بهذه الإرادة ، ولا يحترمونها ، فخططهم وبرامجهم وأهدافهم ، لا يمكن بأي حال ، أن تخرج عن نطاق الورق ، والحفلات والمآدب والخطب الرنانة !

مثل جبهة بغداد - تركيا - إيران - باكستان - بريطانيا ، التي تزداد مقاومة شعوب تلك البلاد لها ، وتتحين الفرص ، لكي تهدمها ، وسوف تهدمها بلا جدال !

يا عرب ، يا شعوبًا انتظرت آلاف السنين ، يومها في العدل ، ويومها في الحق ، وساعتها في تقرير المصير ، نحن اليوم لا ننتظر ، بل نتقدم ، والذي سيتعرض الطريق ، صهيونيًا كان أم حليفًا للصهيوني فسيرى شيئًا جديدًا ، لم يخطر أبدًا على باله ، سيرى الجبهة الجديدة المسلحة ، التي ستضرب في الحال ، لأنها من صنع الشعوب ، وليست من صنع أعداء الشعوب !

الله أكبر ، والحمد لك يا رب العرب .

إرادة شعب

سبحان الذي يغير ، ولا يتغير .

إننا نذكر ولا نستطيع أن ننسى .

إننا نذكر تلك الأيام الخالية التي تبـدو الآن بعيدة جدًا لأعين الناظرين ، رغم أنه لا يفصل بيننا وبينها سوى عدد قليل جدًا من السنين .

إننا نذكر أيامًا سوداء حالكة السـواد ، لم تمض عليها سوى سنوات تعد على أصابع اليد ، كـانت مصـر فيـها بلـد النفوذ الأجنبي - رغم المعـاهدة والاسـتقـلال ورغم الأحزاب والبـرلمان ، فكانت الكلمـة الأولى في تسليح الجيش كلمـة الأجنبي ، وكـانت الكلمـة الفاصـلة في سيـاسـتنا الداخليـة للأجنبي، وكانت المشورة النافذة في سياستنا الخارجية للأجنبي .

إذا أرادت مصـر زيادة عدد الجيش المصـري وسلاحه ، صـدرت الأوامر لإحدى المدمرات بالتحرك من مالطة إلى الأسكندرية ، فترتعد فرائص العرش والوزارة والبرلمان ، ويصبح مـشروع التجنيد والتسليح طعـمًا للنيران أو على الأقل للنسيان .

وإذا عرض للبـحث قانون يتعـلق بالأمن العام ، زادت عيـون المستعـمر احمرارًا ، فـازدادت وجوه الحكام المصريين اصفرارًا وطويت صفـحة القانون إلى أجل غير معلوم .

وإذا أطبقت جيوش مصر والعـرب على الصهيونيين في تل أبيب ، صاح الأمريكيون والفـرنسيون والبريطانيون ، صيـحة الفزع والجزع لمصير ربيـبتهم إسرائيل ، فلا يلبث حكام مصـر من أكبر كبير فيهم إلى أصـغر صغير ، أن

يصدعوا بالأمـر ، ويعلنوا هذه الأيام ، إذ أنقذتها الهدنة المـشؤومة من حكم الإعدام . . .

وإذا احتـدمت المناورات السياسيـة ، واهتزت مقاعـد الحكم تحت إحدى الوزارات الحزبية ، كانت كلمة الأجنبـي هي وحدها فصل الخطاب وأصبحت عـبارة « لا تغـييـر » تجـرى علي ألسنة النواب والوزراء بالعـبارة الإنجليـزية المشهورة NO . Change .

هذه أيام لا نزال نذكرها ، ولا ننساها .

ويبدو أن الإنجليز والأمريكيين أيضًا يذكـرونها ولا ينسونها ، والفرق بيننا وبينهم أننا نعلم أنهـا أيام ذهبت إلى غـير رجعـة ، وهم يتـصرفون وكـأنهم يعيشون في تلك الأيام !

وعلى ضـوء هذا الفارق الجـسيم نسـتطيع تفـسيـر الضجـة المرذولة التي جلجلت فـي عـواصم الدول الغـربيـة حـول صـفـقـة السـلاح المصـرية التشيكوسلوفاكية .

كأنما تعيش مصر اليوم كمـا عاشت بالأمس تابعة ذليلة بمشيئة الأجنبي ، وتدخله في أخص شؤونها وأقدس حقوقها كدولة مستقلة ذات سيادة وكرامة.

ولو أدرك الفرسان الصـاخبون الحانقـون أن مصر تعيش في عـهد الثورة والاستـقلال لا في عهد الانحـلال والاضمحلال، لـكانوا في غنى عن تدبير هذه المظاهرة الشائنة التي لا تقدم ولا تؤخر ، بل تزيد مصر تمسكًا باستقلالها وتزيد المصريين حرصًـا عليه لا يعدله إلا حرصهـم على الدماء التي تجري في عروقهم .

ألا فليعلم فرسان العالم الحر أن مصر المستقلة في عهد الثورة ، أصبحت

حرة مطلقة الحرية تفعل ما تشاء ، وتعقد من الإتفاقات والصفقات ما تشاء ، وتبحث عن مصالحها قبل كل مصلحة أخرى في عالم أصبحت مصالح الشعوب فيه مقدمة على كل شيء .

ألا فليعلموا أن الدنيا أصبحت غير الدنيا ، وأن مصر الحرة المعتزة بحريتها واستقلالها وكرامتها لا تقبل وصاية من أحد ، ولا تسمح لأحد أن يضعها تحت رحمته أو يفرض عليها إرادته ، وهي قد اتخذت موقفًا لا سبيل إلى زحزحتها عنه ، ولا جدوى من محاولة التأثير عليها بالتهديد والوعيد .

إن مصر في عهد الثورة لا تأتمر إلا بإرادة شعبها ، وقد ذهبت أيام الحكومات الحزبية التي كانت تنحني لإرادة الأجنبي ، وترتعد فرائصها أمام التهديد والوعيد ، وأصبحت لمصر حكومة تحكم حقًا باسم الشعب ، بواسطة حكام من صميم الشعب ، لا يعترفون إلا بإرادة الشعب التي ليس بعدها ولا فوقها إرادة .

لماذا رفضت مصر المعونة العسكرية الأمريكية؟

* في ٢٩ أبريل سنة ١٩٥٢ وقبل قيام الثورة بحوالي ثلاثة أشهر عقد اتفاق خاص بين الحكومة المصرية والحكومة الأمريكية لشراء الأسلحة من الحكومة الأخيرة نتيجة لحوادث ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ لإمداد مصر بالأسلحة الخاصة بأغراض الأمن الداخلي فقط .

* بعد قيام الثورة طلبنا من الحكومة الأمريكية أسلحة للجيش بناءًا على هذا الاتفاق ، وقد بدأت الحكومة الأمريكية في ديسمبر سنة ١٩٥٢ استعدادها لإمداد مصر بالأسلحة على أساس الدفع نقدًا . . . ولكن :

* بعد مفاوضات طويلة ومباحثات لا تنتهي - على الطريقة الأمريكية - رفضت الحكومة الأمريكية طلب مصر بحجة أنها لا يمكنها تزويد مصر بالسلاح طالما لم تحل مشكلة قناة السويس ، وقطعت المباحثات من جانب الحكومة الأمريكية في فبراير سنة ١٩٥٣ .

* ثم تجددت في أغسطس سنة ١٩٥٤ حينما عرضت الولايات المتحدة مشروع اتفاق المعونة العسكرية . . . وقد رفض هذا الاتفاق من جانب مصر.

* لأنه يفرض قيودًا وسيطرة اقتصادية وعسكرية وسياسية على مصر واستقلالها وكرامتها .

* أما القيود العسكرية فتتمثل في إرسال بعثات عسكرية أمريكية للإشراف على التدريب وصيانة الأسلحة ، وبالتالي لفرض النفوذ داخل

القوات المسلحة المصرية ، وعهدنا بالبعث البريطانية المشهورة قريب .

* وأما القيود الاقتصادية فتتمثل في أن تتعهد مصر بعدم بيع أية مواد استراتيجية للكتلة الشيوعية ، ونظرًا لأن قائمة المواد الاستراتيجية المحظور على مصر تصديرها إذا وقعت مثل هذا الاتفاق تشمل محاصيل مصرية يقوم عليها الاقتصاد القومي فإن نتيجة ذلك التوقيع تصبح سيطرة أمريكا وتحكمها بموجب الاتفاق في كيان البلاد الاقتصادي .

* وما من شك في أنه إذا تمكنت الحكومة الأمريكية من السيطرة على قواتنا المسلحة من خلال الخبراء والبعثة ، وتمكنت من فرض سيطرتها على سياستنا الاقتصادية بتحكمها في كيان البلاد الاقتصادي ، فإن النتيجة الحتمية لذلك هي السيطرة السياسية على مصر أيضًا .

لهذه الأسباب رفضت مصر عقد هذا الاتفاق ، وطالبت بأن لا توضع أية شروط لتسليح الجيش المصري ، بل أكثر من ذلك :

تنازلت مصر عن هذه المنح وطالبنا بأن نشتري السلاح بحر مالنا دون التزامات وعلى أسس تجارية بحتة .

والآن يطيب لي أن أسجل على البيان الذي أصدرته السفارة الأمريكية ما يأتي :

* اعتراف البيان بأن طلب مصر شراء الأسلحة من أمريكا دون عقد اتفاق عسكري قد قوبل باهتمام من أمريكا بعد تسوية مشكلة قناة السويس .

ولقد سويت المشكلة منذ سنة ، فهل لي أن أتساءل عما إذا كان هذا الاهتمام جديًا ؟

وإذا كان كذلك ، هل تستدعي دراسة هذا الموضوع كل هذه المدة والحكومة الأمريكية تقول أنها كانت معنية به ؟ أم أن الأمر هو التسويف المتعمد !

* ذكر البيان أيضًا في سياسة الحكومة الأمريكية بنيت على ما جاء في الميثاق الثلاثي عام ١٩٥٠ وأن أمريكا تبيع الأسلحة لمصر وإسرائيل وفقًا لهذه السياسة .

والله صحيح ؟

فإن أمريكا لم تورد لمصر أية قطعة من السلاح ، ومعنى ذلك أن البيع كله لإسرائيل ، ولإسرائيل فقط .

والسؤال الآن :

ماذا أريد بهذا البيان ؟

هل هو الدفاع عن سياسة أمريكا ؟

أم هو التأييد المطلق لموقف مصر ، وصرخة جمال ، وثورة العرب على هذا الخداع ؟

قصة السيطرة والتحكم

إنني أعتبر بحق أن صفقة الأسلحة المصرية نقطة تحول خطير في مستقبل هذا الجزء من العالم وأخطر ضربة وجهت للاستعمار وسياسة مناطق النفوذ التي طبقتها الدول الكبرى منذ أكثر من قرن مضى .

ولعل هذا هو السر في انفلات أعصاب ساسة الغرب وصحافته على نحو بلغ حد الهذيان أول الأمر ، ثم لم يلبثوا أن خانتهم أعصابهم فاعترفوا صراحة ولأول مرة علنًا أمام العالم بحقيقة نواياهم التي طالما ضللوا عنها الشعوب وقت أن كانت أقدامهم راسخة وكلمتهم هي العليا في هذه المنطقة ، ومناطق أخرى كثيرة من العالم .

ومنذ أن أذاع جمالاً خطابيه التاريخيين في معرض القوات المسلحة ثم في الكلية الحربية والعالم يشهد افتضاح أكبر مؤامرة عرفها التاريخ منذ عهد ما بعد الميلاد على لسان أطراف هذه المؤامرة.

بدأت هذه الفضيحة عندما قامت قيامة السياسيين الغربيين وصحفهم غداة خطاب جمال الأول لتنادي بأن المسألة هي مسألة التوازن الذي سيضيع والذي تعهد به الفرسان الثلاثة وكانوا أول من خرقوه كما قالت المستندات .

ولكن جمال قال :

هراء . . . أن الأمر أمر السيطرة والتحكم وفرض النفوذ وهاجوا وماجوا لما أن انفضح أمر التوازن الذي يساوون فيه بين واحد وبين ثمانين .

وتنبه الساسة والصحافة فجأة إلى حجة جديدة لعلها تكسب هذه المرة فقالوا إن الخطر الداهم هو في سباق التسلح . . . لأن مصر تريد أن تؤمن

نفسها وحدودها ضد العدون ومرة أخرى قال جمال :

« **هراء أيضًا ، أن الأمر أمر السيطرة والتحكم وفرض النفوذ** » .

فلما يئسوا من هذا الخداع راحوا يضربون على نغمة جديدة هي البكاء على السلام الذي أصبح مهددًا لأن مصر يجب ألاَّ تسلح جيشها ليرد العدوان بل ويجب أن تستسلم لاعتداءات إسرائيل ، وتفوق إسرائيل الذي كانوا يباهون به علنًا وفي غير حياء بالمقالات وبالرسوم .

السلام الذي يحققونه في شمال إفريقيا بقوات حلف الأطلنطي ، وبدماء شعوب عزلاء من كل شيء إلا الإيمان .

والسلام الذي تريده إسرائيل اعتداء كل يوم وتوسعا في كل اتجاه .

ولكن جمال صمم قائلاً :

هراء ـ أن الأمر ليس أمر السلام وإنما هو السيطرة والتحكم وفرض النفوذ، وظل جمال صلبًا ثابتًا .

وبدأ القوم في الانهيار لتظهر الحقيقة .

لقد تحولت النغمة إلى :

* عويل لأن الفنيين الروس سيقدمون مع السلاح ويسيطرون على القوات المصرية أو على أقل القليل سيتعاملون مع مصر .

* وفي المرحلة التالية هذا معناه تسرب الشيوعية والنفوذ الشيوعي إلى مصر البريئة التي يريدون لها الخير طوال عمرهم !

* ثم ، قطع الغيار ، وكيفية استخدام السلاح ، أن كل هذا يتطلب اتصالاً وثيقًا بين مصر وبين الكتلة الشيوعية .

وظل جمال صلبًا ثابتًا على رأيه وموقفه إلى أن انكشف كل شيء .

إنهم اليوم يقولون علنًا :إن هذه الصفقة لطمة لنفوذ الغرب في هذه

المنطقة واستمع معي إلى جريدة التيمس الإنجليزية الوقورة تقول في عددها الصادر في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٥٥ ما يأتي بالحرف الواحد :

« كانت الدول الغربية إلى الآن بمثابة الأوصياء الوحيدين في تلك المنطقة والسلطة التي كان يباشرها في الأراضي العربية بل الحاكم الأوحد في الشرق الأوسط » .

« إن حاجات الغرب الاستراتيجية وثروة الزيت التي يملكها منذ فترة الحرب العالمية الأولى ، وعناية الغرب بأن يحافظ على التوازن المضطرب بين إسرائيل والعرب ، كل هذا مجتمعًا جعل الدول الغربية تنظر إلى الشرق الأوسط بوصفه منطقة نفوذها » .

وقالت النيويورك تيمس :

« من السخف أن يتمسك المصريون بقولهم : إنه ليس من شأن أي أحد سواهم أمر الحصول على الأسلحة سواء من الجهة أو النوع الذي يريدون » .

إذن فالقضية ليست قضية التوازن ولا سباق التسلح ، ولا السلام ، ولا الفنيين الروس ولا قطع الغيار ، وكيفية استخدام السلاح .

وإنما القصة هي كما صمم عليها جمال من أول يوم إلى أن اعترفوا بها صراحة اليوم قصة السيطرة والتحكم وفرض النفوذ .

لقد كان السلاح هو الأثر الباقي من آثار السيطرة الغربية في هذه المنطقة ، وعن طريق التحكم في السلاح استطاع الغرب أن يعقد حلفه مع نوري السعيد ، الذي يبرره نوري السعيد إلى اليوم بشيء واحد فقط هو أنه كان الوسيلة الوحيدة للحصول على السلاح .

على حساب مصر

وقال جمال للسفير الأمريكي :

هل تعلمون في أمريكا حقيقة نوايا إسرائيل التي عبرت عنها خطب زعمائها في معركة الانتخابات ؟

« إن مناحم بيجن ينادي بالتوسع حتى تشمل إسرائيل الأرض التي وعدوا بها منذ ألفي سنة أو يزيد والتي تمتد من النيل إلى الفرات .

«وبن جوريون ، إنه الآخر يقول هذا متوعدًا العرب بالعقاب والتأديب» .

كان هذا الحديث يدور بين جمال والسفير الأمريكي أيام الانتخابات التي كانت تجري في إسرائيل ، وكان جمال يوضح في كل كلمة منه الخطر الذي يهدد مصر والذي ظهر واضحًا في هذه النوايا العدوانية التي أعلنت وقت المعركة الانتخابية ، والتي تعمل إسرائيل على تحقيقها عن طريق التسلح والاستعداد الذي يجري على قدم وساق .

ثم قال جمال :

إن إسرائيل تحاول أن تسلح جيشها بصورة تشعرنا بالخطر ، في الوقت الذي تشعر فيه الصحف الأمريكية جميعًا بل تباهي بأن جيش إسرائيل بلغ المائتين والخمسين ألف جندي ، وأن لديه من العدة والعتاد مايمكنه من هزيمة الدول العربية مجتمعة .

إنني أطالبكم بالسلاح منذ ثلاثة أعوام ، وأنا اليوم أشعر بالخطر يهدد بلادي ، وأنا أطلب اليوم طلبين :

أولهما : السلاح .

ثانيهما : وما هو حقيقة رأي الحكومة الأميركية في إمدادنا بالسلاح .

كان يدور هذا بخلدي وأنا أقرأ جريدة الواشنطن بوست الأمريكية في عددها الصادر في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

إن الجريدة تقول :

« إن الأسلحة التي ستستوردها مصر ستستعمل ضد إسرائيل ، وإذا ما أرادت أمريكا أن تحول بين كسب مصر الحرب ضد إسرائيل فعليها أن تقدم أسلحة إلى إسرائيل تفوق ما تستورده مصر من الكتلة الشرقية .

وتواجه وزارة الخارجية الأمريكية الموقف الذي يحتم عليها إما أن تناصر مصر أو تناصر إسرائيل ، ولا يمكن لأمريكا أن تضحي بإسرائيل في سبيل كسب رضاء مصر .

إن إسرائيل لن تموت أبدًا ، ولذلك فإن ازدياد السكان فيها ليس إلا نتيجة واحدة وهي أن توسع حدودها على حساب مصر » .

لقد تنبه جمال منذ زمن طويل لهذا الذي أفصحت عنه هذه الجريدة ، بل وواجه به أمريكا .

تنبه جمال إلى أن أمريكا ستضحي بالعرب في النهاية تحت ضغط الصهيونية العالمية ، وكان أفصح دليل على ذلك تدفق السلاح على إسرائيل ومنعه عنا وعن العرب أجمعين .

واليوم حين تقول النيويورك بوست : إن أمريكا لا يمكن أن تضحي بإسرائيل في سبيل كسب رضاء مصر فإنها لا تقول شيئًا جديدًا ، أنها تحقق كل ما أحسسناه وتخيلناه في سنة ١٩٤٨ ونحن نحارب في فلسطين .

لقد كنا نحس ونحن نحارب في فلسطين أن هناك مؤامرة كبرى للقضاء على القومية العربية ، تسندها أمريكا ، ويدفع بها النفوذ الصهيوني ، والمال الصهيوني .

وأحسسنا أيضًا أن إسرائيل لن تقف عند حد ونحن نذكر جيدًا كيف كانت أمريكا تدفع إسرائيل للقضاء على القومية العربية سنة ١٩٤٨ .

نحن نذكر ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده السيد ترومان قبل مايو سنة ١٩٤٨ ليقرر سياسة أمريكا ، وقيل له يومئذ :

وماذا يكون موقفك من العرب إذا عاونت اليهود ؟

فقال ترومان :

وهل يوجد عربي في أمريكا ؟ إن في أمريكا خمسة ملايين صوت يهودي أنا في حاجة إليها ؟

وهكذا قرر ترومان رئيس أمريكا وقتذاك أن يضحي بالعرب من أجل أصوات اليهود في الانتخابات !

يا إلهي ، هل بعد كل هذا يتصورون أن نترك مصيرنا ومقدراتنا لكي يضحي بها ترومان يوم أن يعود أو من يشبهه أو يقل أو يشتد تطرفًا عنه ؟

لقد كان الغرب يحاول خداعنا دائمًا بالوعود وسياسة التهدئة التي حاول دائمًا أن يغطي بها لعبته .

ولكننا كنا نحس بالخطر ونلمسه ولذلك طالب جمال بالسلاح في إصرار.

فماذا كانت النتيجة ؟

لقد حاولوا إغراءنا بالوعود ، في الوقت الذي ينهال فيه السلاح والهبات والتبرعات على إسرائيل حتى وقف بن جوريون ينادي بخطته التي تهدف إلى تجمع يهود العالم في إسرائيل ، وأنه سيسكن في النقب أربعة ملايين يهودي جدد ، وأنه سيعمل على تحويل مياه نهر الأردن لهم .

وتطابقًا لهذا الكلام تقول الواشنطن بوست :

« إن إسرائيل لن تموت أبدًا وأن ازدياد السكان فيها ليس له إلا نتيجة واحدة هي أن توسع حدودها على حساب مصر ، لا أمريكا » .

إننا نتسلح اليوم لكي لا نسمح بهذا أو شبيهه .

وأنت تجهلين يا أمريكا تمام الجهل قوة العرب ونفسية العرب ، فقد نتقبل الإساءة ، ولكن إلى حين .

اذكري يا أمريكا أن مصر قد حمت أوروبا من التتار وأن مصر تحت قيادة صلاح الدين هزمت جيوش ريتشارد .

وأن مصر اليوم رجل واحد ، ومصممة على أن تدافع عن نفسها ضد العدوان الإسرائيلي ، في كل أشكاله .

وأن مصر تعلم أيضًا أنها في دفاعها هذا تجابه قوى إسرائيل وحلفاء إسرائيل والصهيونية العالمية بنفوذها وأموالها وإغرائها وتهديداتها التي تعرفينها جيدًا يا أمريكا .

إن مصر ستنتصر يا أمريكا لأنها تؤمن بنفسها .

وقد احتلت مكانها بكفاحها لا بالسيطرة والعدوان .

فهلا تعتبري بعد يا أمريكا بما يحيط بك من كراهية وحقد في كل مكان؟

٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥

من كان يتصور منذ سنتين ـ أي في فبراير ١٩٥٥ ـ أن في يوم من أيام ذلك الشهر سيبدأ تاريخ جديد للعالم كله ؟

إنني أذكر جيداً ذلك اليوم ولن أنساه ، ويذكره معي كل مصري وكل عربي وكل إنسان حر في أية بقعة من بقاع هذا العالم .

إنه يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ ، لقد أعد بن جوريون لذلك اليوم مفاجأة أراد بها أن يفرض الصلح فرضًا على العرب وهو الشعار الذي اتخذه لنفسه في إسرائيل ، وكان بن جوريون وزيرًا للدفاع ، فأمر قواته بضرب المدنيين في غزة بنفس أسلوب الجبن الذي تجيده إسرائيل وذلك بأن تصوب المدافع من أرض فلسطين المحتلة إلى مدينة غزة ثم تطلق قذائفها وتهرب من مواقعها لتحتمي داخل إسرائيل .

وكان بن جوريون يعتقد أنه بهذه الضربة إنما يرهب مصر ويخوفها ، ولم يقدر مطلقًا أن هذه الضربة كانت هي نقطة التحول الفاصلة في الصراع المحتدم على أرض العرب .

ففي مصر لم يخف أحد ، ولم يرتهب أحد وإنما بدأت تتكشف لنا حقيقة ما يراد بالعرب وأرض العرب واستقلال العرب .

ن أول هذه الحقائق هو تعمد منع السلاح عن مصر وإعطائه لإسرائيل.

ومصر لم تطلب في يوم من الأيام هبة من أحد ولا معونة من أحد ، وإنما كانت مصر تطلب شراء السلاح بحر مالها ، طلبته مصر من بريطانيا فسوفت وماطلت برغم أنها كانت قد قبضت الثمن مقدمًا ، وطلبته مصر من

أمريكا فتظاهرت بالموافقة ولكنها كانت تصطنع الحجة تلو الحجة لكي لا ترسل السلاح من جهة ولا ترفض من جهة أخرى .

احتجت أول الأمر بالنزاع الذي كان قائمًا بين مصر وبريطانيا قبل الجلاء، ولكنها حين وجدت أن اتفاقية الجلاء قد أمضيت عادت فاحتجت بمختلف الحجج إلى أن كان اعتداء ٢٨ فبراير المشهور .

وكان ثاني هذه الحقائق هو أن عملية بيع السلاح أصبحت عملية مساومة سياسية بدلاً من أن تكون تجارة حرة شريفة .

فقد كان الغرب يتوهم أنه هو الوحيد الذي يملك السلاح وأنه هو المتعهد الوحيد لبيعه في هذه المنطقة ، بل كان يتوهم أكثر من ذلك أن الغرب في سبيل حصولهم على السلاح منه سيدفعون إن آجلا أو عاجلاً ثمنًا آخر إلى جانب الجنيهات ، ثمنًا على استقلالهم ، وثمنًا من حريتهم ما دام المتعهد الوحيد يصر على ذلك ، وما دام تهديد إسرائيل قائمًا .

أما ثالث هذه الحقائق فهو أن الغرب نشط فجأة في المنطقة وبدأ ينفذ خطة السيطرة الفعلية عليها عن طريق تكوين حلف بغداد .

لقد تكون هذا الحلف في شهر يناير سنة ١٩٥٥ واعتدت إسرائيل في الشهر التالي أي فبراير سنة ١٩٥٥ ، ولم تكن هناك حاجة إلى ذكاء أومهارة لكي يستطيع الإنسان أن يحسب الحسبة .

ففي الوقت الذي ترفض فيه بريطانيا وأمريكا بيع السلاح لمصر بيعًا شريفًا على أساس تجاري بعد أن عرفتا أننا سندفع ثمنه بالجنيهات فقط لا بالاستقلال ولا بالسيادة ،راحت هاتان الدولتان تبحثان عمن يقبل أن يأخذ السلاح ويدفع الاستقلال ويضحي بالسيادة .

أما رابع هذه الحقائق فهي أن الغرب الذي أقام إسرائيل على حساب أرض العرب وعلى حساب مشرديهم ، يصر على أن يجعل منها قاعدة لاستعماره وفرض سيطرته .

فقد كانت النظرية التي يبرر بها الغرب قيام حلف بغداد هي وجود خطر خارجي يهدد المنطقة من ناحية روسيا ، وعلى هذا الأساس توهم الغرب أن العرب سيتوجهون بكليتهم إلى مجابهة الخطر الروسي ويتركون الخطر الحقيقي الذي يقوم في قلب بلادهم وهو إسرائيل ، وعندئذ تستطيع إسرائيل أن تتوسع كما تشاء وأن تفعل ما تشاء لأن حلفاءها هم حلفاء العرب ، والذين أقاموها هم الذين يسيطرون على المنطقة بموافقة أهلها .

وبمضي الوقت طبعًا ـ حسب خطة الغرب ـ وكان لابد أن تنتهي المسألة بفرض الصلح من إسرائيل على العرب بغض النظر عن اللاجئين وعن حقوق عرب فلسطين وعن ضياع فلسطين ذاتها وأجزاء أخرى من أرض العرب .

كانت هذه هي أهم الحقائق التي أفصح عنها بن جوريون باعتدائه يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ .

ومنذ ذلك التاريخ والحوادث تثبت صدق ما حدسناه .

فحين حطم جمال عبد الناصر أسطورة احتكار بيع السلاح واشترى لمصر أحدث الأسلحة من غير قيد ولا شرط ، ثارت بريطانيا وعصفت الهيستريا بأمريكا .

وحين كشفت مصر حقيقة حلف بغداد ثار الغرب ووصف مصر بأنها تمهد للشيوعية .

وحين قالت مصر : إن إسرائيل قاعدة للاستعمار وكشفت حقيقة الدور

الذي أعدت له إسرائيل ، هجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في مؤامرة يائسة على مصر لكي يقضوا نهـائيًا على كل ما يعرقل خططهم ويكشف نواياهم ، ويحفظ عليهم قاعدتهم من أجل عدوان جديد .

ولا يزال الغرب يصر على عقليته وأخطائه .

ولا زلنا وسنظل نحارب من أجل سيادتنـا واستقلالنا ، فلن نؤمن بخطر وهمي من خارج المنطقة والخطر الحقيقي جاثم في داخلها .

ولن نسمح لقاعدة الاستعمار أن تحقق ما يريده منها الاستعمار .

إنها ذكرى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ .

الفصل السادس

العرب وإسرائيل

دروس في التاريخ

إن إسرائيل ولدت في حجر أمريكا وبريطانيا وهيئة الأمم ، رغم تهرب الجميع من أبوة هذا الوليد المشوه العربيد .

عندما حضر جورج ألن ، مساعد وزير الخارجية الأمريكية إلى مصر كانت مهمة الرئيس جمال هي أن يدرس الجغرافيا لفرسان العالم الحر ، وأن يضع في رؤوسهم حقيقة جغرافية ،يجب ألا ينسوها وهي أن عاصمة مصر هي القاهرة لا وشنطن ولا لندن ولا باريس ولا موسكو .

فالقاهرة ، والقاهرة وحدها هي التي ترسم وهي التي تنفذ السياسة الكفيلة بتقوية جيشها وضمان سلامتها دون حاجة إلى مشورة أو تدخل أو رقابة أو وصاية من أية دولة أجنبية في الشرق أو الغرب .

ولكن يبدو أن ساسة الغرب ليسوا ضعفاء في علم الجغرافيا وحده ، بل هم أشد ضعفًا في التاريخ ؟

فقد جاء في تصريح لمستر ألن أن تبعة إنشاء دولة إسرائيل تقع على عاتق نزعة العداء للسامية عند هتلر ، وسياسة الإبادة الشاملة التي اتبعها الديكتاتور النازي مع اليهود .

هذه هي النظرية العجيبة التي يسوقها مساعد وزير خارجية أمريكا ، لتبرير فاجعة فلسطين التي يتضاءل بجانبها كل ما ينسبه الصهيونيون لهتلر من مظالم واضطهادات .

وقد يكون من العسير أن يطالب أحد ساسة أمريكا المشغولون بالدولار والقنبلة الذرية أن يعودوا إلى المراجع التاريخية ليستذكروا أدوار الحركة

الصهيونية ، وأساليبها الجهنمية لتحقيق أهدافها القائمة على التعصب والتآمر والعدوان .

ولكن إحدى المجلات الأمريكية ذات النزعة الصهيونية المعروفة - كتسعة أعشار زميلاتها الواقعة في براثن الأخطبوط الصهيوني - قد أغنتنا ، وأغنت مستر «ألن وشركاه» عن مشقة الرجوع للكتب والوثائق ، في آخر أعدادها ، وهو المؤرخ بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٥٥ إحصائية عنوانها «الطريق الطويل إلى الوطن اليهودي ، ومن هذه الإحصائية ، البليغة الغنية عن التعليق : يتبين أن أول مؤتمر صهيوني عقد في سويسرا سنة ١٨٩٧ - أي قبل أن يتولى هتلر حكم ألمانيا بنحو ست وثلاثين سنة !

أما بقية الإحصائية فتقول :

سنة ١٩١٧ : تصريح بلفور بأن بريطانيا تنظر «بعين العطف لإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين» .

سنة ١٩٢٠ : عصبة الأمم تعهد إلى بريطانيا بالوصاية ، لتنفيد وعد بلفور (اعتبارًا من سنة ١٩٢٣) .

سنة ١٩٢٢ : الكونجرس الأمريكي يوافق بالإجماع على وعد بلفور .

سنة ١٩٣٧ : اللجنة المؤلفة لتحقيق حوادث العنف توصي بتقسيم فلسطين .

سنة ١٩٣٩ : بريطانيا العظمى تعرض الاستقلال في عشر سنوات ، على أن يشترك اليهود والعرب في تأليف الحكومة . رفض المشروع ، قيام الحرب العالمية الثانية .

٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ : هيئة الأمم تؤلف لجنة لبحث المشكلة .

٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ : هيئة الأمم تقرر التقسيم ، العرب يقاومون ، بدء المناقشات .

١٤ مايو سنة ١٩٤٨ : إعلان قيام حكومة إسرائيل ، الولايات المتحدة تعترف بها في اليوم نفسه !

١٥ مايو سنة ١٩٤٨ : بريطانيا تنهي الانتداب ، الجيوش العربية تدخل فلسطين .

٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩ : إبرام الهدنة طبقًا لشروط هيئة الأمم .

١١ مايو سنة ١٩٤٩ : قبول إسرائيل في هيئة الأمم .

سنة ١٩٥٠ : توازن التسلح في الشرق الأوسط .

هذه هي التواريخ التي أثبتتها المجلة الأمريكية ، نقلتها دون تعديل أو تبديل ، بما فيها الإشارة الأخيرة إلى ضمان « توازن التسلح في الشرق الأوسط» ، وهو الضمان الذي يحاولون الاستناد إليه في الحجر على حرية مصر والدول العربية في تقوية جيوشها ليتم التوازن بمعناه الصحيح بين المليون ونصف المليون أفاق الذين يغتصبون قطعة من فلسطين ، وبين العرب الذين يبلغ تعدادهم ـ بما فيهم عرب شمال إفريقيا ـ نحو الثمانين مليونًا !

وغاية الرجاء هو ألا تحول مشاغل مستر ألن ومستر دالاس وزملائه فرسان العالم الحر ، دون مطالعة هذه الإحصائية الصحفية التاريخية ، ليعلموا الحقيقة التي يتنصلون منها ، ويحاولون الاختفاء وراء هتلر ومظالمه واضطهاداته التي يتحدثون عنها ، ويعاقبون العرب عليها ، وهي أن إسرائيل ولدت في حجر أمريكا وبريطانيا وهيئة الأمم ، رغم تهرب الجميع من أبوة هذا الوليد العربيد .

وبعد .

فإن فرسان العالم الحر يحتاجـون إلى دروس في الجغرافيا ويحتاجون إلى دروس في التاريخ .

فماذا تعلموا ؟ وبأي حق يريدون من العالم أن يقر سياسة قوامها الجهل، والهوى ، والعناد ؟

حكماء صهيون

الذي يقرأ تصريحات موسى ديان قائد الجيش الإسرائيلي بعد التسلح المصري لابد أن يبكي معه على إسرائيل الطيبة المسكينة .

أنه يقرر في أول حديثه أن فرص إسرائيل لتكسب حربًا ضد الدول العربية أو حتى ضد مصر وحدها تتضاءل شهرًا بعد شهر كلما تلقت مصر أسلحة ثقيلة من تشيكوسلوفاكيا ودربت جنودها على استخدامها .

ثم يتابع حديثه في ذلة ومسكنة ، فيقول : «لا نمتلك الدبابات السنتوريون البريطانية ولا الباتون الأمريكية ولا الدبابات الروسية الثقيلة . هذه هي خير دبابات العالم .

ويستمر في استعراض مختلف الأسلحة التي لا يملكها جيش إسرائيل على صورة تشعرك بأن جيش إسرائيل يستحق منك الرثاء والعون .

هذا هو اللون الجديد من ألوان الدعاية الصهيونية التي تتلون وتتشكل بهدف واحد ، هو استجداء العطف والنقود من كل مكان .

كنت أقرأ هذه التصريحات وأمامي دوسيه يحوي ضمن ما يحوي بروتوكولات حكماء صهيون .

وقصة هؤلاء الحكماء مشهورة ، فقد وضعوا للصهيونيين مبادئ يسيرون عليها ، لها عندهم قداسة الكتب المقدسة عندنا ، ولكن ما تحويه أمر فظيع وخطير لا يكاد يصدقه العقل .

ولن أستطيع أن أورد في هذا المكان نصوصها لضيق الحيز ، إلا أنني

سأحاول أن أتناول مبادئ منها تلقي ضوءًا على سلوك إسرائيل وسياسة إسرائيل .

لقد بنى الحكماء وصاياهم على مبادئ وصفوها بأنها نزلت من عند الرب، ولذلك فلن تقبل المناقشة بل هي واجبة التنفيذ ورتبوا عليها الوسائل لتحقيق هذه المبادىء على الأرض .

فهم يقولون مثلاً : « **إن الصهيوني من طينة الله ، وإن جميع ما على هذه الأرض من كنوز وأرزاق هو ملك له ، وأن «الأمي» وهو تعبير يطلق على المسلم والمسيحي وكل من ليس يهوديًا ـ لا حقوق له على هذه الأرض ، بل أنه خلق ليكون في خدمة الصهيوني ، وعلى ذلك فهم يقررون أن دم الأمي حلال بل إن الصهيوني ينال مثوبة عند الله إذ قتل الأمي ...** » .

وهذا هو أعجب ما يمكن أن ينصح به رجل دين ، الناس الذين يتبعون هذا الدين .

فإن السماء لم ترسل الرسل والأنبياء والأديان إلا للعمران والمحبة والسلام عن طريق تنظيم العلاقات بين الناس .

وأكثر من ذلك فإن هؤلاء الحكام يوصون الصهيونيين بأنهم قد لا يستطيعون في وقت من الأوقات أن يسيطروا على ملك هذا العالم وأرزاقه وكنوزه ولذلك فهم ينصحونهم ألاَّ ييأسوا ، بل عليهم أن يكافحوا بكل السبل في سبيل الوصول إلى أغراضهم وقالوا ونصوا صراحة على أن الرشوة والخمر والنساء رسائل مشروعة ، بل واجبة في سبيل الوصول إلى هذه الأغراض .

ثم ينصحون بالتغلغل في كيان الدول والسيطرة على موارد المال فيها

لأنهم بهذه الطريقة يسيطرون على اقتصاديات هذه الدول إلى أن تأتي الساعة المناسبة فينقضوا عليها أو ينفذوا ما يريدون فيها من سيطرة .

أرأيت أشنع من هذه الخطط المدمرة التي تصطبغ بصبغة الدين والتعصب .

إننا نستطيع اليوم أن نلمس هذه الخطط التي تنفذ بدقة منذ مئات السنين، بل نلمس ثمارها في كل أنحاء العالم على شكل جاليات ومؤسسات صهيونية تؤثر وتتغلغل في كيان كل دولة يعيش فيها صهيوني واحد في غير استثناء . .

لعل هذا يلقي ضوءاً على المعركة التي تنشب اليوم بين الحق والباطل ، وبين شريعة السماء وشرائع الغاب . .

قصة معارك الحدود

إن المعارك التي نشبت على حدودنا الشرقية ـ صغيرة كانت أو كبيرة ـ هي في الواقع امتداد لكفاح هذا الشعب الباسل ضد أعدائه .

إن ضباطنا وجنودنا الذين قاتلوا على الحدود لا يحاربون من أجل الدفاع عن تلك الحدود فحسب ، وإنما هم يدافعون اليوم عن حق هذا الشعب في الخلاص من السيطرة الأجنبية ومن الضغط ومن التحكم الذي طالما فرضته قوى الاستعمار .

فالذين استشهدوا وهم يقاتلون المستعمر بقيادة عرابي ، والذين لفظوا أنفاسهم برصاص الجنود الإنجليز في شوارع القاهرة ، وفي المدن ، وفي الحقول ، ثم بعد ذلك في القتال مع أم صابر والطفل نبيل منصور ، كل أولئك قد كتبوا بدمائهم سطروا في كتاب القضية المصرية وهو نفس الكتاب الذي يملكه جنودنا وضباطنا على الحدود المصرية وضد إسرائيل .

إن المعركة ليست معركة حدود ، وإنما هي معركة البقاء لهذا الشعب الطيب الذي تتآمر عليه قوى كثيرة من خارجه تدفع بعدوان إسرائيل على الحدود ، بعد أن فشلت في التآمر علينا من داخل الحدود .

فكيف انتقلت إذن معركة الشعب المصري ضد الاستعمار من كفاح داخل الحدود إلى كفاح وراء الحدود ؟

اسمعوا القصة كها وكيف بدأت ، اسمعوا سر معارك الحدود .

وكان أول فصل من فصول القصة يوم أن تقدمت دول الغرب إلى مصر بمشروعات الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط قبل توقيع اتفاقية الجلاء على

أساس أن تكون حلاً سعيداً موفقاً لإنهاء الاحتلال البريطاني وبدءاً لعهد جديد تنهال فيه المساعدات العسكرية والاقتصادية ويعم الخير في مصر . . . و . . . و . . .

ورفض جمال مشروعات الدفاع والأحلاف هذه قبل اتفاقية الجلاء على أساس أن الشعب المصري قال رأيه فيها منذ سنة ١٩٥١ ، ومن جهة أخرى قال للغرب بصراحة :

« إن مشاريع الدفاع والأحلاف هذه ما هي إلا صورة أبشع من صور الاحتلال والسيطرة التي سنقاتل إذا اقتضى الأمر للتخلص منها فهل تريدون مني أن أستبدل احتلالاً بما هو أشنع من الاحتلال ؟ ماذا أقول للشعب ؟ » .

وأسدل الستار على هذا الفصل وطلب الغرب أن يكون لهم رجعة إذا ما انتهت مشكلة القنال ووقع الاتفاق ثم كان اتفاق الجلاء .

وقال الغرب : إنه بعد توقيع اتفاقية الجلاء أصبح الأمر أمر صداقة بعد عداوة وأنهم على استعداد لبحث طلبات الأسلحة التي كان جمال قد تقدم بها منذ الشهور الأولى لمولد الثورة ، ولكن هل صحيح كانوا يؤمنون بما يقولون ؟

إن الحوادث أثبتت بعد ذلك بجلاء عكس ذلك على طول الخط .

لقد تيقن القوم بعد توقيع اتفاقية الجلاء أن نفوذهم في مصر أصبح وشيك الزوال إن لم يكن قد زال فعلاً فعولوا على أن يلعبوا بالكارت الوحيد الباقي وهو السلاح . . .

نعم ، لم يبق في مصر أحزاب تتسابق لإرضائهم كما كان في الماضي على طريقة المزيدات التي كانوا يربحون فيها دائماً ولم يبق في مصر ملك

يفنى فى سبيل إرضائهم أيًا كان الثمن .

والعمـلاء ، لقد أحسوا كـيف ضربت الثورة على أيدي عمـلائهم بحزم وشدة .

إذن لم يبق إلا الكارت الأخـير وهو السـلاح ، وكانوا قـد تعللوا طوال السنوات الثلاث الماضية بمختلف التعليلات لكي لا يسلحوا الجيش المصري .

وكانوا في نفس الـوقت يغدقون السـلاح على إسرائيل لكي تتم فـصول المسرحية .

إن القوم ـ في سـبيل إبقاء سـيطرتهم على مصر ، لـم يبالوا بشيء على الإطلاق ، منعوا السلاح عن مصر وأعطوه لإسرائيل وشجعوا إسرائيل .

وأخذت صـحفهم تشيـد بقوة إسرائيل وتفوقـها وضعف مصـر والعرب وقصورهم في كل شيء .

وبدأت المسـاومـة ، وفي هذه المرة تقـدموا إلـى جمـال بمشـروع الأمن المتبادل، فإذا ما وقعه فإن السلاح سيأتي من غير ثمن .

ولم يكن جمال ليرفض أبدًا سلاحًا لجيش مصر ، ولكن . . . .

رفض جمال العـرض في غير تردد ولا هوادة ، فإن هذا الـعرض يحمل معه بشكل واضح التدخل والسيطرة عن طريق البعثة العسكرية الأمريكية التي هي شرط أساسي من شروط هذا العرض .

وما هو عمل هذه البعثة ؟

إن عملهـا بالنص الصريح هو الإشراف على الأغـراض التي سيستـعمل فيها هذا السلاح ، وعلى التدريب ، وعلى قوات مصر المسلحة بالكامل !

« **وكأنك يا أبو زيد ما غزيت** » .

ورفض جمال لكي لا يضع جيش مصر في خدمة أحد غير مصر ومصالح مصر .

ثم كان اعتداء ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ .

وجمع جمال واحد زائد واحد ثم قدر . . .؟ وصمم أن زعماء الغرب وأصحاب التصريح الثلاثي لم يحركوا ساكنًا بعد ذلك الاعتداء المشهور برغم أن مجلس وزارء إسرائيل اعترف به رسميًا .

وطلب جمال السلاح هذه المرة ، ولكن بمنطق آخر .

إن السلاح هو الأداة الوحيدة الباقية في أيدي الغرب لفرض النفوذ .

وهم لم يتورعوا أن يحرموا مصر منه ويساوموا عليه في الوقت الذي لا يعنيهم أن يموت هذا الشعب بأكمله أو يصبح أمة من اللاجئين ، وليتكرر اعتداء ٢٨ فبراير على أبشع وأشد صورة ، إن دماء هذا الشعب وأرزاقه وأرضه ومقدراته لا تعنيهم وما داموا يحرموننا السلاح فإننا لابد سنجثو على ركبنا نطلب منهم الحماية .

وسندفع لهم أبدًا ثمن هذه الحماية .

ومرة ثالثة ارتفع الستار على هذيان الغرب الجنوني الذي ملأ العالم يوم أن اكتشفوا أن «**نقبهم كان على شونة**» ، وأن جمال حصل على السلاح الذي يريد بالشروط التي يريد .

فشل الغرب إذن في كل حسابه . . . وتلاشى إلى الأبد نفوذهم وسيطرتهم .

وتكتلت الأمة العربية من أقصاها إلى أدناها وهي تحس المرارة والحقد على الغرب ونفوذ الغرب وسياسة الغرب ، وكان لابد لهم من مخرج .. ماذا يفعلون ؟

وأعلن عن سفر جورج ألن فجأة ليقابل الرئيس جمال .

وصحب هذا الإعلان حملة من حرب الأعصاب التي تعود الغرب إثارتها على الشعوب الصغيرة بغية تفتيت مقاومتها وإثارة الانقسام فيها لكي يمهد عملاؤهم السبيل أمام طلبات الغرب فتنفذ على الفور .

وكان خطأ فاحشًا ، لقد نسى القوم أن من في مصر ثوارًا وليسوا حكامًا، ونسوا أيضًا أننا لا نعترف بنفوذ لأحد هنا سوى مصلحة مصر وحياة مصر .

ونسوا أيضًا أن سياسة التهديد لا تخيفنا بل تحفزنا وتلهب دماءنا .

لقد كان تهديدهم غرورًا أجوف قابلته مصر وصحافة مصر بالتحقير والازدراء .

وسأكشف هنا عن موقف لجمال حقيق بأن يعرفه الناس اليوم .

ففي هذه الأثناء كان يوجد في مصر أحد الرسميين الكبار ، فلما أعلن عن قدوم جورج بتلك الطريقة المسرحية المغرورة طلب هذا الكبير الأمريكي مقابلة جمال وقال :

« لقد سمعتم اليوم عن سفر جورج ألن وأنا قادم إليك لأرجوك ألاَّ تنفعل حينما يقابلك جورج ألن برسالة قد يكون فيها ما تعتبره خروجًا على العرف أو تدخلاً ، فالقوم لا يعرفون حقيقة الموقف ولم يسمعوا ما سمعته أنا منك .

إنني أرجوك وأناشدك أن تعطينا فرصة لإصلاح هذا الخطأ » .

ونظر إليه جمال نظرة طويلة على طريقته الهادئة وقال :

« ليكن معلومًا أنني لن أسمح لكائن من كان أن يخرج عن حدوده وسيكون ردي قاطعًا جازمًا وعليكم أنتم أن تتحملوا التبعة » .

وخرج الرسمي من عند جمال وجاء ألن .

وحينما قابل جمال لم يكن يحمل تهديدًا ولا وعيدًا بل بادر فور وصوله مصر إلى تكذيب كل هذه الشائعات ، وفشلت حرب الأعصاب المغرورة الكاذبة .

واستمع جورج ألن إلى جمال ، وذهل مما سمعه من بيانات .

لقد أطلعه جمال على بيان دقيق عن كل ما شحن إلى إسرائيل من معدات وسلاح من أمريكا وإنجلترا وفرنسا في الوقت الذي منع فيه هذا السلاح عن مصر عمدًا وأعطونا بدلاً منه الوعود والأماني الكاذبة خلال ثلاث سنوات .

وسمع جورج ألن أكثر وأكثر .

لقد كان جمال واضحًا وصريحًا ، وكان السفير الأمريكي في مصر يؤمن على كل كلمة قالها جمال .

وعاد ألن إلى واشنطن، وقبل عودته زار في طريقه لبنان وقابل وزيرخارجيتها في ذلك الوقت السيد سليم لحود وقال له بالحرف الواحد :

« إنني بعد مقابلتي للرئيس جمال أقرر وأنا مطمئن تمام الاطمئنان إلى أن هذا الرجل لا يقول إلا الحقيقة ولن يقول في أي يوم إلا الحقيقة ولكن

الخبراء....» .

والحقيقة أنها ليست الخبراء ، ولكنه النفوذ الذي ضاع والكارت الأخير الذي حرق وأصبح لا يجدي وهو المساومة على السلاح .

وبدأ فصل جديد من فصول هذه المسرحية الحرب الوقائية ، الحرب الوقائية التي تهدد بها إسرائيل ويخشى منها الغرب ـ المخلص جدًا ـ على مصر وعلى العرب وعلى السلام الذي يريدون .

ومرة أخرى أوقعهم غرورهم في خطأ أشد فحشًا ، فإن هذا الشعب من وراء جمال لن يقبل أن يطلب حماية الغرب من الحرب الوقائية التي يخوفون بها مهما كانت النتائج ومهما كان الثمن .

لقد ظنوا أن جمال سيهرع إليهم طالبًا النجدة لتبدأ المساومة من جديد ، ولكن جمال صمد على موقفه ومن ورائه شعب وجيش على أتم الاستعداد ، ومن حوله العرب جميعًا يهتفون هتافا واحدًا ألاَّ أحلاف ولا سيطرة ولا عدوان بعد اليوم وأن سحقًا للغرب وأساليب الغرب وتهديد الغرب .

وعقد الميثاقان السوري والمصري والسعودي والمصري .

ولم يبق أمام الغرب إلا الكارت الأخير إسرائيل . وإسرائيل كابن آوي تنتظر اللقمة من منشئها وباعثها وسيدها .

وتحركت إسرائيل ، فماذا تريد إسرائيل ، وما هي نوايا إسرائيل ، وما هو المستقبل مع إسرائيل ؟

أخذت إسرائيل تستعد لتحقيق أطماعها بتأييد الغرب وبسلاح الغرب وشعار مشاريع الغرب .

لقد اتحدت مصالح وأهداف إسرائيل مع مصالح وأهداف الغرب الذي فرضها فرضًا بالقوة والعدوان ، والغدر ، فرضها الغرب مليونًا بين خمسة ملايين ، لتكون هي ساعده الأيمن وتكون سيدة هؤلاء الملايين الخمسين التعساء .

وفي المعركة الانتخابية الأخيرة في إسرائيل وقف مناحم بيجن يقول بأعلى صوته :

إن إسرائيل الموعودة تمتد من النيل إلى الفرات .

وتقدم بن جوريون رئيس وزارة إسرائيل الحالي ببرنامجه الذي أوصله إلى كرسي رئاسة الوزارة وأعلنه صراحة في كلمات موجزة مفيدة قائلاً :

« **سنفرض الصلح على العرب بالقوة** » .

حدث هذا في الوقت الذي كان جمال يطلب فيه السلاح من الغرب .

وفي مقابلة بين الرئيس جمال والسفير الأمريكي سأله جمال عمًّا إذا كانت أمريكا لا تعلم حقيقة مشاريع إسرائيل ونوايا إسرائيل بعد الذي قاله زعماؤها في المعركة الانتخابية ونالوا عليه الثقة ؟

ولكن جمال لم يحصل على رد أمريكا ، وهو لن يحصل أبدًا على هذا الرد كما كان الحال في مسألة السلاح .

إن إسرائيل لم تضيع لحظة واحدة في تجهيز نفسها للتوسع وتحقيق أطماعها التي ينادي بها زعماؤها ويؤمن بها شعبًا .

فالسلاح حصلت عليه من الغرب ، من أمريكا ومن إنجلترا ومن فرنسا باعترافهم جميعًا وضمنت التفوق فيه بتأييد الغرب الذي منعه عن العرب .

وفي السياسة قامت إسرائيل على يد الغرب ومن صنعه ، فبعد أن اطمأنت إلى تفوقها في السلاح أخذت تنتظر أن يفرغ الغرب من إكمال حلقات خلقها بإرغام الدول العربية على الاعتراف بها بل والاشتراك معها على قدم المساواة في مشاريعه في الشرق الأوسط وبذلك تتم المؤامرة .

وإسرائيل حشدت واستعدت .

كانت خطتها قد بنيت على أساس أن تعالج أمورها مع الدول العربية واحدة واحدة .

ولقد عبر سفير دولة من دول الغرب في سورية عن هذه الخطة حينما قال في حديث له :

« **إن العرب كالأرانب ، وستصطادهم إسرائيل واحدًا واحدًا** » .

وبدأ صيد الأرانب .

ففي سنة ١٩٥٣ تركزت اعتداءات إسرائيل كلها ضد الأردن .

وفي سنة ١٩٥٤ تركزت اعتداءات إسرائيل كلها ضد سورية.

وفي سنة ١٩٥٥ تركزت اعتداءات إسرائيل كلها ضد مصر .

بهدف واحد في كل هذه السنين هذا الهدف هو أرض العرب من النيل إلى الفرات وقرى العرب من النيل إلى الفرات.

وظنت إسرائيل أن تأييد أسيادها سيجعل المهمة سهلة ، من أجل ذلك تحركت الأفاعي على الحدود .

ومن أجل ذلك نادى جمال في العرب حتى بح صوته أن اتحدوا يا عرب لكي لا تؤكلوا واحدًا واحدًا .

ومن أجل ذلك أيضًا نادى جمال لكي يقف العرب رجلاً واحدًا بقيادة موحدة تجاه تلك القيادة الموحدة التي سبق لها أن تغلبت على سبع قيادات .

لقد كانت مصر تعرف هدف الأفاعي التي على الحدود وإلى أي أهداف تهدف .

من أجل ذلك أعدت مصر جيشها واشترى جمال السلاح كما يريد من غير قيد أو شرط .

اشترى جمال السلاح بعد أن وضحت نيات الغرب ونيات إسرائيل في تحقيق حلم الصهيونية الضخم في إنشاء دولة تمتد من النيل إلى الفرات .

لقد خلقت إسرائيل في كنف العدوان والاغتصاب والشر .

خلقت باسم الظلم والقهر وسيادة الدول الكبرى على الصغرى ، فأي سلام هذا الذي ينادون به .

إنهم في تل أبيب يجترون الكذب منذ وطئت أقدامهم أرض العرب ، فبالكذب جاءوا وبالكذب يعيشون .

ونوايا إسرائيل وأهدافها أصبحت واضحة للعيان قولاً وعدوانًا ، فالذين يغتصبون أرضًا ويطردون أصحاب الأرض ثم يجدون من يقف من خلفهم يبارك ويؤيد كل هذا ، ماذا يكون هدفهم ؟ أيكون الأمن أو السلام أو الشرف أو القناعة ؟

أبدًا .

فكما اغتصبوا أرض فلسطين في حمى الدول الكبرى ، فإنما تمتلئ رؤسهم بمشاريع أخرى تمتد من النيل إلى الفرات كما يعلنون .

ولقد تساءلت في غير هذا المكان عما سوف يكون عليه المستقبل مع إسرائيل على ضوء نوايا إسرائيل .

واليوم أقول : إن السلام في الشرق الأوسط قد مزق وسميزق على الدوام طالما أن حلم الصهيونية الضخم لم يتحقق بعد .

وسيظل السلام ممزقًا لأن هذا الحلم لن يتحقق أبدًا ، إن دون تحقيق هذا الحلم اليوم سلاح وعتاد ليس فاسدًا هذه المرة .

ودون تحقيق هذا الحلم قيادات عربية مؤمنة موحدة يقف من خلفها شعوب متماسكة لا يستطيع خائن أو عميل أن يطعنها من الخلف ، وفي هذه الحالة سيتحقق حلم آخر يملأ رؤوس العرب لا رؤوس بني صهيون ومن يقفون من خلف بني صهيون .

إن نوايا إسرائيل قد أيقظت العرب على حقيقة المأساة الدامية .

وتأييد الغرب المفضوح قد فتح عيون العرب على ما يهدد أوطانهم وكل ما يملكون .

إن مصر والعرب اليوم في طريقهم إلى القوة ، القوة التي لم تعد عقبة من تلك العقبات التي كانت تملأ هذا الطريق ، فقد تحررنا من السيطرة الأجنبية إلى الأبد .

وعرفنا كيف يتحقق الأمن وكيف يتحقق السلام .

الحرب الوقائية

إن لمذبحة كفر قاسم مغزى أخطر وأعمق من كل ما سمعه العالم من تفاصيل بشعة لهذه المأساة .

فقد وقعت هذه المذبحة في نفس اليوم الذي هجمت فيه إسرائيل على مصر أي يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وفي نفس اليوم الذي بدأت فيه مؤامرة فرنسا وبريطانيا وإسرائيل ضد مصر والعرب .

والواضح تمامًا أن هذه المذبحة كانت مقدمة لمذابح أخرى ستقع في مصر وفي دنيا العرب إذا كان قد قدر لهذه المؤامرة الدنيئة أن تنجح ، ويظهر أن إسرائيل كانت واثقة تمامًا من نجاح هذه المؤامرة بعد أن اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا وعتاد حلف الأطلنطي ، لذلك بادرت بتطبيق سياستها الثابتة نحو العرب في كفر قاسم فقتلت النساء والأطفال وبقرت بطونهم وشوهت جثثهم .

ولقد ظل أمر هذه المذبحة مطويًا إلى أن فشلت المؤامرة الثلاثية وأحس بن جوريون أنه لا بد أن يقدم في يوم من الأيام الحساب ، لذلك رأينا أن بن جوريون يقف في برلمان إسرائيل لكي يعتذر بل أكثر من ذلك يأمر بصرف تعويضات حتى يحاول تغطية الجرم الذي ارتكبته حكومة إسرائيل ، والعجيب أن بن جوريون لم يعتذر عما حدث في قبية ولا عما حدث في دير ياسين ولا عما حدث في نحالين ،ولكنه بادر هذه المرة إلى الاعتذار والإعلان عن دفع تعويضات ، فما هو تفسير ذلك ؟

إن التفسير المعقول الوحيد هو أن بن جوريون أسقط في يده يوم أن عرف

أن المؤامرة الثلاثية قد فشلت ولذلك لن يستطيع أن يخفي إجرامه وراء ستار النصر الذي كان يحلم به والذي كان سيمكنه من فرض شروطه على العرب إلى الأبد ، وبذلك تكون مجزرة كفر قاسم في ذمة التاريخ .

وسياسة ذبح النساء وتقتيل الأطفال وبقر البطون وذبح الرجال جزء من مبادئ دولة إسرائيل لأنها في عرفهم من تعاليم التوراة دستور إسرائيل .

بل إنهم يؤمنون في إسرائيل أن لا بقاء لهم إلا إذا طبقوا شريعتهم كما فعل يوشع بن نون تلميذ موسى عندما أغار على أربد ، وحين دخل المدينة أمر فقتلت النساء والأطفال والرجال وشوهت جثثهم ولم يبق في المدينة إلا نفر من النسوة الساقطات لكي ينعم اليهود ويسعدوا ويحتفلوا بنصرهم على الجثث والأشلاء وبين أحضان النسوة الساقطات ومن يراجع حديث المدعو إسرائيل الدد وهو زعيم من زعماء الجمعيات التي كانت تنادي بالحرب الوقائية في إسرائيل منذ شهور إلى جريدة هاعولام «العالم» الإسرائيلية سيجد حقائق عن شريعة اليهود وثوراتهم أبشع من كل ما ذكرت .

وها هي الحرب الوقائية قد وقعت ، وانضم لإسرائيل فيها دولتان هما بريطانيا وفرنسا .

لذلك بادرت إسرائيل بتنفيذ وصايا توراتهم في نفس اليوم الذي بدأت فيه هذه الحرب في كفر قاسم ، ثم فعلوا مثل ذلك في رفح وفي خان يونس وفي غزة وفي العريش .

ولقد نفذت بريطانيا وفرنسا وصايا يوشع بن نون مع إسرائيل .

وبريطانيا وفرنسا يحملان مع إسرائيل اليوم تبعة ما حدث في كفر قاسم وفي غزة وبقية المدن .

والثأر الذي نطالب به نحن العرب لقتلانا وشهدائنا لم يعد مقصوراً على إسرائيل ، فإسرائيل كلها لابد وأن تكون الثمن مهما طال الزمن .

وإنما نحن سنظل نثأر من بريطانيا وفرنسا إلى يوم القيامة سيكون ثأرنا في هدوء وتصميم ، سيكون ثأرنا هو شغلنا بالليل وهمنا بالنهار ، وسيكون ثأرنا نارًا تحرق مصالح بريطانيا وفرنسا ، وتأتي على كل ما يمت لبريطانيا وفرنسا .

لقد فشلت الحرب الوقـائية وقضت بفشلها على بريطانيـا وفرنسا وقررت مصير إسرائيل .

وسيـأتي دورنا في الحرب الوقـائية ، فـلا بد أن يوقي العالـم من شرور شريعة الغاب التي تبقر البطون وتقتل النساء وتفتك بالأطفال .

حلم بن جوريون

دخل بن جوريون المؤامرة مع بريطانيا وفرنسا ضد مصر وهو مؤمن تمام الإيمان بأنه قد حقق حلم حياته .

فالذي لا يعرفه الكثيرون هو أن ابن جوريون ينام ويصحو على أمل واحد هو أن يرغم العرب على الاعتراف بإسرائيل كدولة ، وكثيرًا ما تحدث إلى من حوله من الناس بخوفه من أن يموت قبل أن يحقق هذا الحلم .

وفي سبيل تحقيق أمنيته ، يستخدم كل الأساليب مهما كانت ، خاصة وأن في تعاليم حكماء صهيون - التي هي في نظر اليهود مقدسة ككلام السماء تمامًا - متسع لكل ما هو قذر وخبيث ودنيء .

فهذه التعاليم تحض اليهود صراحة على أن يقوضوا أركان كل إيمان ، وأن يعبثوا بكل القيم التي تقوم عليها المجتمعات ، ولهم أن يستخدموا في سبيل ذلك حتى الخمر والنساء لكي يسيطروا على المجتمعات التي يعيشون فيها كخطوة أولى للسيطرة على هذا العالم الذي يقولون : إن الله قد جعله لهم من دون البشر .

وفي التلمود أيضًا نص صريح على أن قتل (الجويم) أي غير اليهودي حلال لليهودي وتقرب إلى الله .

وفي التلمود أيضًا :

« كل مكان تطؤه أقدامكم يكون لكم ، كل الأماكن التي تحتلونها فإنها لكم فإنكم سترثون الجويم (أي غير اليهود) المستكبرين في الأرض ، وبعد ذلك كل مكان بعد أرض إسرائيل التي يجب ألا تكون نجسة تحت أقدام

الجويم ، إنكم بعد أن تحتلوا أرض إسرائيل يحق لكم أن تحتلوا غيرها » .

فأرض إسرائيل التي يريدها اليهود هي من النيل إلى الفرات فما بالك (بغيرها) هذه التي وردت في التلمود .

من هذا نخرج بفكرة عما كان يراود أحلام بن جوريون حين دخل المؤامرة لكي يحققها قبل أن يموت .

ولقد كانت وسائل بن جوريون مطابقة تمامًا لشريعة إسرائيل في كل المراحل .

قتل النساء والأطفال ، وبقر البطون وهدم البيوت والاستيلاء على أرض الغير وأملاكهم ومقدراتهم .

حدث كل هذا ويحدث منذ أن سمحت الدولة العثمانية لليهود بسكنى فلسطين .

وقبل سنة ١٩٤٨ كانت وسائل اليهود وحكومتهم هي الخمر والنساء ، اغتصبوا عن طريقها بعض الأرض .

وبعد سنة ١٩٤٨ أصبحت وسائل اليهود وشريعة حكومتهم العدوان والقتل والاستعانة بالغرب المسيحي على العرب من مسلمين ومسيحيين .

ومنذ اللحظة الأولى لقيام إسرائيل وجدت التشجيع المادي والأدبي .

فالمستر ترومان رئيس أمريكا السابق يعترف بقيامها قبل أن تعلن تل أبيب، ويأخذون له صورة هو ووايزمان وبينهما علم إسرائيل .

وبريطانيا وفرنسا وأمريكا تغدق السلاح بيعًا ومعونة على إسرائيل وتمنعه عن العرب .

ومئات الملايين من الدولارات تتدفق سنويًا على إسرائيل من أمريكا لكي تبني إسرائيل اقتصادها ومقوماتها وتعيش كدولة وقصة التعويضات الألمانية التي تدفعها أمريكا عن طريق ألمانيا .

كل هذا ولم يقتنع بن جوريون ، بل أراد أن يتوج كل جرائم إسرائيل بالقضاء على مصر مع بريطانيا وفرنسا وفرض إرادته على العرب أجمعين ، فلما فشل هذا العدوان وقضى على المؤامرة نراه ـ اليوم ـ بتأييد نفس الذين أيدوه من قبل يريد أن يحقق مكاسب من هذا العدوان .

والعجيب أن الذين أقاموا إسرائيل ليتخذوا منها قاعدة للاستعمار والعدوان لا زالوا بعد أن انكشفت لعبتهم يروجون لما تسميه إسرائيل ضمانات مع أنها هي المتعدية وهي الآثمة منذ أول لحظة قامت .

وهي المعتدية على سورية . وهي المعتدية على الأردن . وهي المعتدية على مصر .

إسرائيل هي المعتدية في قبية حين ذبحت الأطفال والنساء وإسرائيل هي التي بقرت البطون وبعثرت الأشلاء في دير ياسين وإسرائيل هي التي اعتدت على سورية من الحولة ، وعلى مصر في خان يونس والكونتلا والصبحة . وعلى الأردن في قلقيلية .

وأخيرًا إسرائيل هي التي اعتدت على سيناء وغزة بمساعدة بريطانيا وفرنسا.

ومع ذلك لا يريد الغرب أن يفهم أو يعقل ، بل يتحدثون عن الهدنة واحترامها ، وعن الضمانات التي تعطي لإسرائيل لكي تحقق أحلامها التي أوصى بها حكماء صهيون والتلمود !

فليطمئن بن جوريـون هو وحلفاؤه وليمت مستـريحًا إلى أن إسرائيل لن تكون أبدًا دولة .

فستدفع إسرائيل ثمن عدوانها كله من قبل أن تقوم ومن بعد أن قامت .

ولن يستطيع حلفاء إسرائيل أن ينقذوها ، ولن تستطيع كل تعاليم التلمود وحكماء صهيون أن تنقذها هي الأخرى .

لقد حكمت إسرائيل على نفسها بالفناء .

ولم نعد نحن العرب وحدنا الذين لا نعترف بقيام هذه الدولة المجرمة .

إن معنا أصدقاء أقوياء ، وفي نفوسنا بركان من الغل والثورة والانتقام .

مشكلة الشرق الأوسط

والحلول غير المدروسة أو التي تراعي فيها مصالح معينة بقصد حل مشاكل الشرق الأوسط لن تزيد هذه المشاكل إلا تعقيدًا وتأزمًا .

ومشاكل الشرق الأوسط واضحة لا يحتاج المرء في فهمها إلى بحث أو تنقيب .

وأكثر من ذلك ، فإن العدوان الفرنسي البريطاني الإسرائيلي الأخير على مصر قد ألقى كل الضوء على هذه المشاكل .

فالشرق الأوسط مضطرب وفي حالة غليان ، ولكن لا يكفي أن نقول هذا لكي نبرز أي حل لا يقضي على هذا الاضطراب أو يعالج ذلك الغليان.

ولنستقصي أسباب ذلك الاضطراب والغليان .

إن أول هذه الأسباب هو إسرائيل ، ولست أقول هذا القول اليوم فقط ولكننا قلناه منذ زمان طويل قبل العدوان الأخير ودللنا عليه بآلاف الأدلة الحية لأمريكا وبريطانيا .

فبسبب إسرائيل تشرد أكثر من مليون عربي من ديارهم ومنازلهم لا لشيء إلا لأن بعض الدول الكبرى كانت ولا تزال تريد قيام دولة تسمى إسرائيل حتى ولو كان هذا على حساب أرض الآخرين وأملاك الآخرين .

ولعل النقطة السوداء القاتمة في سياسة أمريكا بعد الحرب هي إقامة إسرائيل ومبادرة ترومان رئيس أمريكا السابق إلى الاعتراف بها قبل أن تقوم !

وجر قيام إسرائيل مئات من المشاكل التي أصبحت جرحًا قوميًا للعرب

لن يتلئم أبدًا إلا بزوال هذا السرطان وبتره إلى الأبد .

لقد فرضت إسرائيل على أرض العرب وفي أملاك العرب وفي دنيا العرب بالقوة وضد مشيئة أصحاب الأرض رغمًا عنهم ، هذه حقيقة لن يستطيع الذين فرضوا إسرائيل أن يخفوها أو يتجاهلوها .

ومنذ ذلك التاريخ تراكمت الأخطاء بعضها فوق بعض من جانب أولئك الذين فرضوا إسرائيل ضد العرب بقصد حماية إسرائيل ودوام قيامها ، ويأملون أن ينسى العرب أو يسلموا بالأمر الواقع .

وكانت هذه السياسة من جانب الذين أقاموا إسرائيل هي النار التي تشعل نفوس العرب بل تلهبها كل يوم بوقود جديد وعزم جديد .

فلكي يحافظ الذين فرضوا إسرائيل على قيامها زودوها بالسلاح والمال وتركوها ترتكب المذابح كل يوم في سورية وفي الأردن وفي مصر .

وحين طلبت هذه الدول أن تشتري السلاح بحر مالها لكي تدفع عن نفسها العدوان رفض الذين أقاموا إسرائيل وبدؤوا يساومون على الاستقلال تارة وتارة أخرى على الاعتراف بإسرائيل ومذابح إسرائيل وما تريده إسرائيل.

وحين اشترت مصر وسورية السلاح من الكتلة الشرقية من غير مساومة ولا قيود وبحر مالها ، قامت قيامة أولئك الذين أقاموا إسرائيل واتهموا مصر وسورية بالباطل والبهتان ظنًا منهم أن ذلك يخوف أو يرهب ، وهم في الواقع يركبون الأخطاء فوق الأخطاء .

ولقد أصدر الذين أقاموا إسرائيل بيانًا في مايو سنة ١٩٥٠ كان القصد منه هو منع العدوان في الشرق الأوسط.

ويشاء القدر إلا أن يكون هذا البيان هو أكبر سخرية عرفها التاريخ ، فقد اشتركت في إصداره ثلاث دول هي أمريكا وبريطانيا وفرنسا لم تلبث دولتان منها هما فرنسا وبريطانيا أن ارتكبتا علنًا العدوان بالاشتراك مع إسرائيل في الشرق الأوسط بدلاً من أن تدفعا هذا العدوان .

وكان اشتراك الدولتين الآثمتين مدبرًا وعن إصرار وعمد يوم أن استخدمتا حق الفيتو لكي تجعلا من عدوان إسرائيل عملاً مشروعًا لم تلبثا أن انضمتا إليه .

وبالرغم من أن إنجلترا وفرنسا تعلمان أن أمريكا تشترك معهما في ذلك التصريح فإنهما لم تقيما أي وزن لذلك بل استمرتا في عدوانهما من يوم ٣١ اكتوبر إلى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ برغم صدور قرار هيئة الأمم المتحدة في ٢ نوفمبر من السنة ذاتها .

هذا هو الوضع الذي كان يجب أن يلقي عناية من أمريكا إذا كانت شؤون الشرق الأوسط واضطرابه وغليانه يراد لها أن تستقيم .

إن الشرق الأوسط في اضطراب وغليان بل في حرب فعلاً فمن المسؤول؟

من الذي تآمر على سلامة واستقلال مصر ونفذ مؤامراته واستخدم أسلحة وعتاد حلف الأطلنطي ؟

من الذي يثير الفتن والمؤامرات والدسائس ضد سورية ؟

من الذي يحاول بلبلة الأفكار في الأردن وجره إلى حلف بغداد العدواني ضد إرادة أهله وشعبه ؟

من الذي يبذر الشقاق والخلافات والدعايات بين البلاد العربية ؟

من الذي يريد أن يقلب حلف بغداد الفاشل إلى حلف إسلامي لكي يغرر بالشعوب ويخضعها لأطماعه واستعماره ؟

إن الذي يفعل كل هذا هو المسئول عن اضطراب وغليان ومشاكل الشرق الأوسط .

وكل من يغفل هذه الحقائق يكون كالنعامة يدفن رأسه في الرمال .

فالشرق الأوسط مهدد والذي يهدده هو بريطانيا وفرنسا وإسرائيل .

فكيف يطلب منا أن نلغي عقولنا ونصدق بخطر وهمي يأتي من الدول التي تسيطر عليها الشيوعية الدولية في الوقت الذي نحارب فيه نحن فعلاً ضد عدوان بريطانيا وفرنسا وإسرائيل الذي دمغه العالم ، وفي الوقت الذي مات فيه أبناؤنا ونساؤنا وأطفالنا تحت أنقاض بيوتهم التي دمرتها قنابل بريطانيا وفرنسا ، وفي الوقت الذي تبقر فيه بطون أهلينا في كفر قاسم وغزة وسيناء على يد إسرائيل ؟

الفصل السابع
حكاية الفراغ
ومشروع أيزنهاور

الأسطورة الجديدة

الأسطورة الجديدة هي حكاية الفراغ .

وتقول صحف الغرب الغيورة أن فراغًا نشأ في الشرق الأوسط نتيجة لانهيار نفوذ بريطانيا وفرنسا في المنطقة وأن على الولايات المتحدة أن تتقدم لملء هذا الفراغ قبل أن يتقدم الاتحاد السوفيتي .

وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا !

وكأن كفاح أربع سنوات ونصف سنة منذ أن قامت الثورة إلى اليوم بما فيه الغزو لم يقنع الغرب أن مصر ترفض حكاية الفراغ وترفض نظرية مناطق النفوذ سواء للشرق أو للغرب أي سواء لروسيا أو لأمريكا .

ولماذا إذن كانت مصر تجشم نفسها كل هذا الكفاح ضد النفوذ البريطاني إذا كان سيأتي بدله نفوذ روسي أو نفوذ أمريكي ؟

إن منطق مناطق النفوذ وحكاية الفراغ مرفوضة من أساسها جملة وتفصيلاً .

فالفراغ كان في وجود بريطانيا في منطقة الشرق الأوسط لأنها جعلت من المنطقة بركانًا يغلي بدسائسها التي كانت تبذرها بين أمم المنطقة وشعوبها ولا تزال .

والفراغ كان في محاولة تضليل بريطانيا لشعوب المنطقة بإيهامها أن الخطر يأتي من الشمال ، في الوقت الذي كانت بريطانيا تغرس في قلب العرب خنجرًا مسمومًا هو إسرائيل ، لم تلبث بريطانيا أن استخدمته للقضاء على هذه الشعوب علنًا وعلى مرأى ومسمع من العالم كله .

والفـراغ كان في جـشع بريطانيا الجـنوني الذي دفعـها إلى عـمل يائس محموم قتلت فيه النسـاء والأطفال وهدمت فيه البيوت على العزل الآمنين لا لشيء إلا محاولة فرض إرادتها واغتصاب أرض الغير وأرزاقه ومقدراته .

والفراغ كان في بقـاء إنجلترا ونفوذ إنجلترا ، فبـالرغم من أنه كان يربطها بدول هذه المنطقـة اتفاقات صـداقة ، فـإنها لم تتورع عن أن تدفـع بإسرائيل لتعتدي على مصـر ثم شنت هجومًا غادرًا وضعيفًا لتؤيد إسـرائيل ضد ميثاق الأمم المتحـدة ، وضد كل مـا تعارف عليه الـبشر من قـيم وخلق تمثلت في حقوق الإنسان .

ولا أدري أي فراغ هذا الذي تريد صحف الغرب من أمريكا أن تملأه ؟

فالفراغ الـوحيد في هذه المنطقة كـان هو إنجلترا ، وقد امتـلأ ولله الحمد بانهيارها وإفلاسها وخروجها من المعركة ضعيفة هزيلة .

والفراغ سيـعود من جديد إلى هذه المنطقة إذا ما فكرت دولة كـبرى مرة ثانية في دخولها أيًا كانت هذه الدولة .

فنحن نرحب بكل صداقـة شريفة ، ولكننا مصمـمون على قطع كل يد تمتد لنا بالسيطرة أو فرض الإرادة .

نحن نرحب بالتجـارة الشريفة ، ولكننا سنسحق ذلك اللـون من التجارة الذي يجلب معه النفوذ والسياسة .

ولن نرضى بغير المسـاواة التامة ، فسياسة مناطق النفـوذ تعني بالنسبة لنا الحرب والكفاح وعبـثًا يتخيل أحد أنه يستطيع أن يقرر مصـيرنا بغير إرادتنا ، فلم تعد لندن وباريس تصلحـان إلا لتقرير مصـير إنجلترا وفرنسـا لأنهما في حاجة إلى من يعينهما ويدافع عنهما .

أما نحن فسنقرر دائمًا مصيرنا شاءت لندن وباريس أم غضبتا .

ونحن أيضًا لسنا في حاجة إلى حماية أحد ولا إلى التسول من أحد .

إن طريقنا واضح كالشمس ، ونحن لن نكون ذيلاً لأحد ، ولن ننحاز لأي من المعسكرين ، ولكننا سنصافح من يصافحنا وسنعادي من يعادينا .

وقد يكون من الخير أن نستجلي بعض النقاط بتوجيه بعض الأسئلة إلى الرئيس أيزنهاور قبل أن يصدر المرء حكمه على ما ورد في رسالته إلى الكونجرس .

إن الأمر يتعلق بأرضنا نحن ، وأمننا نحن ، وسلامنا نحن ، كما يتعلق بسلام العالم كله وأمنه ومستقبله .

يقول الرئيس أيزنهاور في البند الثالث من الإجراء الذي يقترحه ما يأتي :

« وسوف ينطوي في المقام الثالث على التفويض بأن تشمل هذه المسَاعدة وهذا التعاون استخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة لضمان وحماية السلامة الإقليمية والاستقلال السياسي للأمم التي تطلب مثل هذه المساعدة ضد العدوان المسلح المكشوف من أية دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية » .

وهذا الإجراء غامض ويثير بعض الأسئلة:

فلنطبق الكلام على الواقع ونسأل :

إذا حدث وتعرضت مصر لعدوان جديد من جانب حلف الأطلنطي وإسرائيل ، تستخدم فيه أسلحة وعتاد ذلك الحلف وقواعد إسرائيل ، فماذا سيكون موقف الولايات المتحدة ؟

علمًا بأن العالم كله شهد مثل هذا العدوان في أكتوبر ونوفمبر سنة١٩٥٦ وإذا حدث مثلاً واعتدت إسرائيل على الأردن بمساعدة الطائرات ، والطيارين الفرنسيين ، والدبابات ، والمدافع الفرنسية ، وأسلحة وعتاد حلف الأطلنطي كما فعلت في أكتوبر سنة ١٩٥٦ مع مصر ، ووجد الأردن أن الأمر يدعو إلى الاستنجاد بدول العالم لمساعدته ضد مؤامرة مشتركة لكي يحافظ على استقلاله وسيادته الكاملة ، ثم حدث أن خفت إلى نجدة الأردن دولة أو دول من تلك التي وصفها الرئيس إيزنهاور بأنها تسيطر عليها الشيوعية الدولية .

فماذا سيكون موقف الولايات المتحدة ؟

علمًا بأن الرئيس إيزنهاور يقرر في بيانه بالنص :

« إن أمريكا تؤيد دون تحفظ السيادة الكاملة والاستقلال لكل دولة من دول الشرق الأوسط » .

وعلمًا بأن الأردن سيكون في حالة دفاع شرعي وطلب النجدة الذي سيطلبه من العالم سيكون من حكومته الشرعية ؟

هذا موقف .

وهناك موقف آخر أخطر من هذا لأن مثله حدث فعلاً .

فإذا حدث مثلاً أن وجهت بريطانيا إنذارًا إلى سورية قائلة : إنه إما أن تسمح سورية لبريطانيا باحتلال خط أنابيب البترول ومحطات تكريره في ظرف اثنتى عشرة ساعة ، وإما أن تحتلها بريطانيا بالقوة ، ثم رفضت سورية هذا الإنذار وبدأت بريطانيا الهجوم على سورية مستخدمة أسلحة حلف الأطلنطي وطياراته ودباباته وأساطيله ، وعندئذ وجدت سورية أن من حقها الشرعي ، أن تستنجد بدول العالم لصد هذا العدوان ، واستنجدت فعلاً

وكان أول من خف إلـى نجدتها دولة أو دول من تـلك التي وصفهـا الرئيس إيزنهاور بأنها تسيطر عليها الشيـوعية الدولية ، فماذا سيكون موقف الولايات المتحدة ؟

علمًا بأن مثل هذا الأمـر محتمل وقوعه بين لحظة وأخـرى وحدث فعلاً من قبل في مصر .

وتحدث الرئيس إيزنهـاور أيضًا عن التصريح الثـلاثي الذي صدر في ٢٥ مايو سنة ١٩٥٠ .

والتعرض لهذا التصريح يجعلنا نسأل :

لماذا لم يطبق هذا التـصريح الذي ينـص على التدخل المسلح من جـانب أمريكا إلى جانب الدولة المعـتدى عليها في أكتـوبر سنة ١٩٥٦ حين الاعتداء على مصر ؟

هل لأن العدوان كان على العرب مثلاً ؟

إن الأمـر لازال يكتنفـه الغمـوض ، وقـد يكون في الإجـابة على هذه الأسئلة جلاء لبعض هذا الغموض .

مشروع إيزنهاور وهذا العدوان

إن النساء والأطفال ماتت في اليمن بفعل قنابل بريطانيا ، والمنازل دكت وهدمت في اليمن بفعل قنابل بريطانيا .

إن عدوانًا وقع على اليمن تعرضت فيه حياة الآلاف من البشر للقتل والدمار ، واليمن في الشرق الأوسط .

فما هو رأي أمريكا ، وما هو رأي المشروع الأمريكي الجديد ؟

أليس الشرق الأوسط اليوم يتعرض للعدوان ؟

أليس استقلال اليمن وسيادتنا يتعرضان للعدوان ؟

أليس هجوم بريطانيا بالطائرات والدبابات على المدن اليمنية عدوانًا على بلد من بلدان الشرق الأوسط ؟

وهكذا يتعرض المشروع الأمريكي من أول لحظة لأقسى امتحان .

ومن قبل قلنا : إن الشرق الأوسط لا تهدده دولة من تلك التي وصفها البيان الأمريكي بأنها تخضع للشيوعية الدولية وإنما هددته ولا تزال تهدده دول من الكتلة الغربية هي بريطانيا وفرنسا وربيبة الغرب إسرائيل .

ولقد أغفل البيان الأمريكي تمامًا كل إشارة إلى العدوان الذي وقع على الشرق الأوسط في مصر واعتبر أن العدوان لا يأتي إلا من دول تسيطر عليها الشيوعية الدولية ، وطبيعي إذن أن يكون العدوان الذي وقع على اليمن من بريطانيا ، حسب منطوق البيان الأمريكي ، شيء لا قيمة له أو لا يعتبر عدوانًا على الشرق الأوسط برغم أرواح النساء والأطفال التي زهقت وبرغم

الدمار الذي ينزل بمدن اليمن ومرافقه ومقدراته !

وهذا المنطق المقلوب يؤدي أيضًا إلى منطق آخر أشد انقلابًا حسب ذلك البيان .

فإن اليمن عليها ألا تستنجد بدول العالم لمساعدتها ضد عدوان بريطانيا خشية أن تستجيب دولة تخضع للشيوعية الدولية إلى نجدة اليمن فتعتبر اليمن في نظر أمريكا دولة شيوعية ويصبح من المتحتم حسب البيان الأمريكي هجوم أمريكا على اليمن !

وحسب البيان الأمريكي أيضًا فإن على كل دولة من دول الشرق الأوسط حين تتعرض لعدوان بريطانيا أو فرنسا أو إسرائيل أو الثلاث مجتمعة أن تترك نساءها وأطفالها يقتلون وبيوتهم تهدم لأن ذلك ليس عدوانًا في نظر أمريكا وإنما أمريكا تتحمس فقط عندما تهجم على الشرق الأوسط دولة من الدول التي تخضع للشيوعية الدولية .

ثم تأتي مسألة العدوان غير المباشر أيضًا التي وردت في البيان الأمريكي.

ويظهر أن أمريكا تريد أن ترث بريطانيا حتى في طريقة الصياغة اللولبية للألفاظ لكي يمكن أن تحمل في المعاني والتخريجات ما يلائم كل الظروف .

فما هو العدوان غير المباشر ؟

وماذا يطلق على المؤامرات التي تحيكها بريطانيا اليوم لشعوب الأمة العربية ؟

وماذا يطلق على تمويل فرنسا لإسرائيل بالسلاح ؟

وماذا يطلق على تمويل بريطانيا للمؤامرة ضد سورية ؟

وماذا سيكون موقف الولايات المتحدة إذا عقدت فرنسا محالفة مع إسرائيل ؟

هل يكون على العرب أن يحمدوا الله على أن العدوان لم يأت من دولة تخضع للشيوعية الدولية وإنما أتى ويأتي كل يوم من دول الكتلة الغربية ؟

إن أمريكا لم تحدد موقفها من العدوان الذي يقع على اليمن التي هي دولة من دول الشرق الأوسط وتتمتع بكامل السيادة والاستقلال إننا لا نستطيع أن نفهم البيان الأمريكي إزاء هذا الموقف .

وإذا صدقنا ما ورد في البيان الأمريكي ، فإن العدوان البريطاني ـ الفرنسي الأخير على مصر وعلى الشرق الأوسط يصبح عملاً مشروعًا لا عدوانًا مجرمًا ، ويصبح مبدأ حل المشكلات الدولية بالعمل الفردي عن طريق استخدام القوة أيضًا عملاً مشروعًا بعد أن استنكره العالم كله لأنه تطبيق لشريعة الغاب .

إن هناك حقائق ثابتة من العبث أن تتجاهلها أمريكا .

إحداها هى أن العدوان الوحيد الذي وقع في منطقة الشرق الأوسط حتى الآن جاء من جانب فرنسا وبريطانيا وإسرائيل ، اثنتان منها هما فرنسا وبريطانيا حليفتان تقليديتان لأمريكا فيما يسمى بعالم الغرب ، أما الثالثة ، وهي إسرائيل ، فهي تلك الدولة التي سعى ترومان رئيس أمريكا السابق إلى الاعتراف بها قبل أن تولد ، ثم تولت أمريكا إعاشتها حتى اليوم بالإعانات والهبات التي تزيد عن الستمائة مليون دولار سنويًا ، هذا بخلاف السلاح والعتاد .

ولا أظن أبدًا أن أمريكا تجهل الحقيقة .

فلماذا إذن تحاول أمريكا خلق عدوان وهمي مما أسمته دولاً تخضع للشيوعية الدولية ضد الشرق الأوسط في الوقت الذي لم يقع على الشرق الأوسط إلا عدوان واحد هو عدوان حلفاء أمريكا وشركائها فرنسا وبريطانيا والربيبة إسرائيل ؟

وكيف يستطيع المرء أن يوفق بين استنكار أمريكا بالأمس للعدوان الفرنسي البريطاني الإسرائيلي وبين موقفها مما تعلنه اليوم ، ويعني أنها تستعد لكي ترتكب في الغد عملاً كالذي ارتكبه حلفاؤها بالأمس ؟

إن التفسير الوحيد لهذا التناقض لن يكون إلا أمرًا واحدًا ، هو أن أمريكا تريد أن تحتل نفس الوضع ونفس المكانة التي كانت لبريطانيا وفرنسا في هذه المنطقة ضد إرادة شعوب المنطقة وأهلها .

ولن يكون هذا التفسير إلا أن أمريكا تريد أن تكمل المعركة التي بدأتها فرنسا وبريطانيا ولم تستطيعا أن تصمدا فيها ، معركة مناطق النفوذ وفرض إرادة الدول الكبرى على الدول الصغرى بالقوة وضد إرادة الشعوب .

ولن يكون هذا التفسير إلا أن أمريكا تريد أن تقول لشعوب هذه المنطقة أنها أقوى من روسيا ، لا عن طريق استخدام القوة وحدها وإنما أيضًا عن طريق الرشوة والدولار ؟

لماذا تلجأ أمريكا إلى هذه التصرفات التي ستنتهي بها على مر الأيام إلى ما انتهت إليه بريطانيا وفرنسا في هذه المنطقة ؟

وأين الحديث عن هيئة الأمم المتحدة وتأييد أمريكا لها ونداء أمريكا أثناء عدوان حلفائها على مصر بأن هذه الهيئة هي المرجع الوحيد لحل مشاكل العالم ؟

إن معنى المشروع الأمريكي أن تنفرد أمريكا بتحديد معنى السلم والحرب، وأن تنفرد أمريكا بتحديد معنى العدوان المباشر على الشرق الأوسط مما أسمته دولاً تخضع للشيوعية الدولية ، في الوقت الذي لم يعتد فيه على الشرق الأوسط عدوانًا مباشرًا إلا حلفاء أمريكا ، وفي الوقت الذي يصر فيه أيضًا حلفاء أمريكا على إثارة الفتن والتفرقة والدسائس في هذه المنطقة مما يقع تحت اسم العدوان غير المباشر .

ولم يذكر لنا هذا المشروع شيئًا لا عن عدوان حلفائها المباشر ولا غير المباشر بل أكثر من ذلك يتجاهل كل شيء بالنسبة لأي عدوان يأتي في المستقبل من جانب هؤلاء الحلفاء .

ومعنى المشروع الأمريكي أيضًا أن ما يسمي اعتداء هو ذلك الذي يأتي من دولة من دول الكتلة الشيوعية التي لا ترضى عنها أمريكا ، أما إذا جاء عدوان من دولة من دول الغرب على الشرق الأوسط كما حدث من بريطانيا وفرنسا فإنه لا يصح أن يسمى عدوانًا وإنما يصبح عملاً عاديًا تعود فيه أمريكا إلى الأمم المتحدة وإجرءاتها كما صرح بذلك دالاس في بعض تصريحاته .

إن أمريكا ستفقد في لمح البصر كل ما كسبته في موقفها الأخير ، وقد كان المنتظر أن تنتهج أمريكا بعد هذا الموقف سياسة أمريكية عادلة فجاء هذا المشروع مؤذنًا بسياسة أنكي من كل ما تؤمن به السياسة البريطانية الاستعمارية .

أبو جهل

وحسب مشروع إيزنهاور الجديد أن أمن الشرق الأوسط وسلامته يجب أن يضحي بهما من أجل أمن الولايات المتحدة .

فأمريكا تريد بمشروعها الجديد أن تحمي إسرائيل التي شنت الحرب في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ على مصر وجعلت من أرضها قاعدة لفرنسا وبريطانيا لكي يفرضا سيطرتهما الاستعمارية على هذه المنطقة بالقوة وضد إرادة شعوب هذه المنطقة .

ومعنى هذا أن المشروع الأمريكي يحمي العدوان من جديد ، وأمريكا تريد بمشروعها الجديد أن تجعل من الرشوة فضيلة ، والرشوة في الأرض وفي السماء رذيلة .

فأمريكا تعلم أن هذه المنطقة في حاجة إلى مساعدات اقتصادية ، ولكنها تغفل عن عمد أن سبب فقر هذه المنطقة هم أولئك الذين يصرون على إفقارها ولو بإعلان الحرب وتدمير المدن وقتل الأبرياء باستعمال أسلحة أمريكا، هم بريطانيا وفرنسا وحلفاء أمريكا التي تريد بمشروعها الجديد أن تحمي عدوانهما الماضي والمستقبل أيضًا .

ويجب أن تعلم أمريكا أن الشعوب ترفض هذا اللون من التفضل والاستعلاء في إعطاء المساعدات ، وأمريكا تضحك على نفسها إذا ما اعتقدت أن قبول حاكم من الحكام لمساعدتها يعني قبول الشعوب .

وفي كلام المستر دالاس يقول ردًا على سؤال وجه إليه : إن أمريكا لم تفكر في إعطاء مساعدات لمصر وأن هذا يتوقف على مسلكها .

أي أن واهب الأرزاق دالاس جل جلاله سوف يتكرم على مصر بالمساعدة إذا ما أدت واجبات العبادة والركوع لسياسته السنية .

أو بمعنى آخر على مصر أن تثبت أنها جديرة برضاء قدس الأقداس دالاس لكي يمنحها دولاراته المباركة .

يقول دالاس هذا وهو يعلم أن مصر أعلنت رسميًّا أنها لم تطلب ولن تطلب مساعدة من أمريكا .

ويقول دالاس هذا وهو يعلم أن لمصر خمسين مليونًا من الدولارات مالا حلالا مصريًا جمدته أمريكا إرضاء لبريطانيا وفرنسا اللتين اعتدتا على مصر واللتين اعترف دالاس أنهما كانتا تعدان خطط العدوان منذ وقت طويل قبل حدوثه وأنه علم بذلك .

ويقول دالاس هذا وأمريكا ترفض بيع القمح لمصر ، والقمح هو غذاء للشعب في الوقت الذي يعلن فيه بن جوريون أن صفقة الطائرات الفرنسية التي اشترتها إسرائيل كانت بعلم أمريكا وتأييدها وبركتها .

أي تخبط هذا ، وأي غرور هذا الذي يكمن وراء هذا المنطق وتلك التصرفات ؟

إن دولارات أمريكا كلها لا تكفي لشراء قطرة واحدة من سيادتنا ، والمستر دالاس واهم أشد الوهم إذا كان يعتقد أن الضغط الاقتصادي سيحقق له ما لم تحققه أسلحة حلف الأطلنطي على يد بريطانيا وفرنسا .

ففي العالم أصدقاء شرفاء يحترمون الاستقلال ويتعاملون بنظرية التعايش السلمي مع مصر ، وهم بحمد الله لا يتألهون عندما يتعاملون مع الشعوب الصغيرة .

وهم أيضًا لا يحمون العدوان ، ولا يعترفون بسياسة مناطق النفوذ .

فخير للمستر دالاس أن يفتح عينيه على الحقائق بدلاً من أن يعيش في الأوهام التي عاشت فيها بريطانيا وفرنسا ولم تصيبا إلا الخيبة والخسران .

وكلما أضاف المستر دالاس تفسيرًا جديدًا إلى مشروع أيزنهاور ، ازداد ذلك المشروع غموضًا وتعقيدًا وغرابة .

والمستر دالاس يفسر الحرب بعد الجهد بالحرب .

إن آخر هذه التفسيرات هو ذلك الذي صدر عن المستر دالاس من أن ذلك المشروع لا يعتبر وجود متطوعين من دولة من دول الكتلة الشيوعية في أي بلد من بلدان الشرق الأوسط عدوانًا طالما أن السلطلة الشرعية في ذلك البلد هي التي استدعتهم للدفاع عن استقلال ذلك البلد .

وإلى هنا كان يمكن أن يكون الكلام معقولاً ، ولكن المستر دالاس صاحب الألغاز والأحاجي يتمم تفسيره فيقول :

على أن يكون ذلك مشروطًا بأن يكون البلد الذي طلب المتطوعين قد وقع عليه عدوان فعلاً ، وألاَّ يتعدى هؤلاء المتطوعين حدود البلد الذي يساعدونه في الدفاع عن استقلاله وإلا كان ذلك عدوانًا يستوجب تدخل أمريكا المسلح .

ومعنى هذا الكلام وتلك الشروط هو ما يأتي :

١ ـ أن أمريكا نصبت على نفسها وليًّا ووصيًّا على دول الشرق الأوسط وتريد أن تفرض على هذه الدول الطريقة التي تعيش بها وتأكل بها ، لدرجة أنها حتى في حالة وقوع عدوان على بلد من المنطقة فإنها ترشده كيف يطلب المعونة وبأية شروط وإلا فإنها ستهاجمه هي الأخرى .

٢ ـ وحسب الشرط الأول ليس لبلد عربي إذا جاء إنذار فاجر قذر كالإنذار البريطاني الفرنسي أن يطلب معونة العالم بل على هذا البلد أن ينتظر حتى يقع العدوان فعلاً وتغير عليه طائرات حلف الأطلنطي وتضرب مدنه أساطيل حلف الأطلنطي وتموت نساؤه وأطفاله تحت أنقاض البيوت ، ثم يكون له بعد ذلك أن يطلب المعونة المشروطة .

٣ ـ وحسب الشرط الثاني فإن هذا البلد العربي المسكين الذي يكون قد تعرض لكل هذا الخراب والدمار بفعل أساطيل وجيوش وطائرات حلف الأطلنطي ، وطلب المعونة وسارعت إلى معونته بالمتطوعين دولة من الذين يطلق عليهم أنهم يخضعون للشيوعية الدولية ، فإن على هذا البلد بعد كل النكبات ألاَّ يسمح للمتطوعين بأن يدفعوا معه العدوان في قواعده ، بل داخل البلد المعتدى عليه فقط ، وبمعنى آخر إذا ما اتخذت بريطانيا وفرنسا إسرائيل قاعدة للعدوان على مصر كما حدث في أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وسارع المتطوعون من الدول الصديقة إلى مصر لنجدتها ضد بريطانيا وفرنسا ، فإن على مصر أن لا تتعرض للقواعد البريطانية والفرنسية التي ترسل إلى مصر بالطائرات والأساطيل وإلا فإن أمريكا تتدخل بالسلاح مع المعتدين وضد مصر المعتدى عليها !

والأعجب من هذا كله هو أن مستر دالاس بهذا التفسير قد اعترف وأقر بمشروعية العدوان على دول الشرق الأوسط فإذا كان هذا العدوان من الكتلة الغربية فإن مستر دالاس لا يتعرض له وإنما يضع للدولة المعتدى عليها شروطًا تطلب النجدة بمقتضاها وإلا هاجمتها أمريكا بالإضافة إلى الذين يهاجمونها من حلفاء الغرب !

أليس هذا التفسير سخرية أية سخرية !

إن الشرق الأوسط يعرف أعداءه يا مستر دالاس وهم ليسوا من الكتلة الشرقية بل هم بريطانيا وفرنسا وإسرائيل حلفاء وشركاء أمريكا في الغرب والأطلنطي ، وفرسان مؤامرة أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

إن الذين يبيعون للشعب المصري القمح ليسوا هم أعداءه يا مستر دالاس .

والذين يقفون إلى جانب العرب وقت المحنة ليسوا هم أعداء العرب يا مستر دالاس .

والذين لا يجمدون أموال الشعب المصري بل يبيعونه السلاح لكي يدافعوا عن أوطانهم ليسوا هم أعداء العرب ولا أعداء مصر يا مستر دالاس .

ولن تخيف مظاهرات القوة أحدًا يا مستر دالاس .

ولن تفيد الحرب الباردة مع أحرار صمموا على الحرية يا مستر دالاس .

وقد نشرت جريدة «هيرالد تريبون» تعليقًا للمعلق السياسي «دافيد لورنس» روى فيه حديث المستر دالاس في الجلسة السرية أمام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس .

وحين يتحدث المستر دالاس عن أمريكا وشئون أمريكا في جلسة سرية أو علنية ، فإن هذا أمر يخصه ويخص بلاده .

أما إذا تحدث المستر دالاس عن مصر في جلسة سرية أو علنية ، أمام أية هيئة في بلاده أو خارجها ، فإن هذا أمر يخصنا نحن في مصر ويحق لنا أن نصحح للمستر دالاس معلوماته التي تحتاج دائمًا إلى التصحيح .

لقد تحدث المستر دالاس أول ما تحدث في الجلسة السرية عن مشروع تقديم المساعدات المالية لمصر ، فقال :

« ليس هناك أي مشروع لتقديم مساعدات مالية لمصر في الوقت الحاضر، ولكننا نأمل أن تتحرر مصر من النفوذ الشيوعي خلال عام أو عامين ، ومن ثم تصبح مصر أهلاً للمساعدة ! » .

وأول ما نرد به على موزع الأرزاق دالاس ، هو سؤال بسيط :

لماذا اختار لكلامه هذا جلسة سرية بدلاً من جلسة علنية ؟

كنت أريد من المستر دالاس أن يكون شجاعًا فيدلي بآرائه في العلن بدلاً من أن يستتر وراء الجدران .

فمصرلم تطلب مساعدة أمريكا ، ولن تطلب مساعدة من أمريكا ، هذا كلام صدر في بلاغ رسمي مصري قبل أن يدلي دالاس بآرائه خلف الجدران .

فلماذا يصر المستر دالاس على التفكير في حال مصر ، وأهليتها وعدم أهليتها للمساعدة ، إذا كان كل حجر في مصر يرفض بل يستنكر مثل هذا التهجم على مصر باسم المساعدات ؟

ثم ، ما هذا الجهل الذي لا يفتأ يردده المستر دالاس عن النفوذ الشيوعي في مصر ؟

لقد كان الأجدر بالمستر دالاس أن يتكلم علنًا لكي يرد عليه العالم كله معنا .

الآن مصر اشترت بحر مالها سلاحًا من الكتلة الشرقية من غير قيود بل عن طريق تجارة حرة شريفة لكي تدافع عن نفسها ضد عدوان ربيبة الغرب إسرائيل ، تصبح مصر خاضعة للنفوذ الشيوعي ويحرض عليها المستر دالاس قواته بعد أن فشلت قوات حلفائه ؟

أم أن مصر لكي لا تكون خاضعة للنفوذ الشيوعي في نظر الإله دالاس جل جلاله كان يجب عليها أن تبيع استقلالها وسيادتها لأمريكا وبريطانيا ، فتسلم لها في أرضها وتدخل أحلافهما وتسلم لإسرائيل صنيعتهما وتركع أمام عدوانها المسلح بأسلحتهما ؟

والشعب المصري الذي يتحدث عنه المستر دالاس .

أليس هذا الشعب هو الذي عاقبه المستر دالاس في يوليو سنة ١٩٥٦ بالانسحاب من تمويل السد العالي الذي سيجلب له الرخاء ؟

أليس هذا الشعب هو الذي عاقبه المستر دالاس بتجميد أرصدته مجاملة لفرنسا وبريطانيا المعتديتين المجرمتين ولا زال يجاملهما على حسابه حتى اليوم؟

أليس هذا الشعب هو الذي عاقبه المستر دالاس بتجويعه فرفض أن يبيع له القمح أخيراً ؟

ما لك وللشعب المصري يا مستر دالاس ؟

ولماذا يخيفك جمال عبد الناصر فتفقد وعيك وصوابك ؟

إنني مشفق عليك يا مستر دالاس من مصير ابن عمك الراحل إيدن ، ولقد كانت لإيدن على الأقل جرأة في وقاحة .

أما أنت فإنك تختفي وراء الجدران وأنت تتحدى الرجال .

الفراغ...وحكايتان

« والفراغ » تعبير استعماري كريه تلجأ إليه بعض الدول لكي تخفي نواياها في السيطرة وفرض الإرادة .

ولقد التقيت بهذا التعبير مرتين ، المرة الأولى حين كنت أتصفح محاضر جلسات المفاوضات المتعددة التي عقدت بين مصر وبريطانيا في مختلف العهود .

كانت بريطانيا تحتج دائمًا بكلمة «الفراغ» لكي تظل قواتها تحتل مصر ، ولو سلمنا نحن بهذه النظرية لظلت جنود بريطانيا إلى يوم القيامة تحتل أرض مصر .

وكان تحليل بريطانيا لهذه الكلمة وقتها هو أن جلاء الجيوش البريطانية عن أرض مصر يستلزم أن يكون لدى مصر جيوش تماثلها قوة وعتادًا لكي تأخذ مكان الجيش البريطاني وإلا حدث «فراغ» بعد الجلاء .

وفي نفس الوقت الذي يقولون فيه ذلك يمنعون عن جيش مصر السلاح بمختلف الحجج لكي يظل ضعيفًا وبذلك تكمل الحلقة المفرغة ، أي لا جلاء إلا بعد أن يتقوى الجيش المصري وهم لن يسمحوا بتقويته أبدًا لأن التسليح في يدهم فتظل الجنود البريطانية إلى الأبد تحتل أرض مصر !

أما المرة الثانية التي التقيت فيها بهذا التعبير فكانت يوم ٢٦ يوليو سنة١٩٥٢ .

وفي هذه المرة سمعت نفس الكلمة لمعنى آخر ولكنه معنى استعماري خبيث .

فإنه بعد أن عرفت الأسكندرية في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم أن فاروق قد أمضى وثيقة التنازل عن العرش ، بدأت وفود المهنئين تتقاطر على القيادة العامة في مصطفى باشا .

وفوجئنا بالسفير البريطاني بالنيابة يطلب الزيارة ، ثم جاء هو والملحق العسكري البريطاني ، وما أن جلس حتى أخرج عن جيبه ورقة أخذ يقرأ محتوياتها علينا .

بدأت هذه الورقة بالتهنئة طبعًا ثم تلا ذلك قراءة بعض النصائح التي توجب الصداقة بين البلدين على بريطانيا أن تقدمها لمصر في هذه الظروف كنص تعبير السفير البريطاني بالنيابة !

وكانت هذه النصائح عبارة عن الآتي :

١ ـ أن يفرض حظر التجول في الأسكندرية خوفًا على حياة الأجانب .

٢ ـ أن يشكل مجلس وصاية على العرش حتى لا يكون هناك «فراغ» .

٣ ـ أن يحترم حق أسرة محد علي في ولاية العرش .

وأذكر أننا ظللنا في ذلك اليوم نضيق الخناق على السفير البريطاني بالنيابة بعد أن رفضنا هذه الطلبات جملة وتفصيلاً ، لأنها من الأمور الداخلية لمصر حتى اضطر السفير البريطاني بالنيابة أن يعتذر ويعلن أن الحكومة البريطانية لم تكلفه بهذه الرسالة على الإطلاق وأن ما دفعه إلى تقديم هذه النصيحة هو الصداقة فقط ، وأخيراً طلب منا أن ننسى هذا الموضوع كلية وانسحب مشيعًا بالاحتقار .

أعود إلى تعبير «الفراغ» فإنه في البند الثاني من نصائح بريطانيا يومها

كانت نتيجة تشكيل مجلس وصاية لكي لا يحدث «فراغ» .

ولم يتضح يومها هدف بريطانيا الحقيقي من هذا الطلب وقلنا : إنهم يخشون من إقامة الجمهورية في مصر .

إلا أنه حدث بعد ذلك بشهر وبعد أن وصل السفير البريطاني من أجازته أن أفصح عن نية بريطانيا .

لقد كانت بريطانيا تريد تنصيب الأمير السابق محمد علي بن توفيق الخائن وعميل الإنجليز رئيسًا لمجلس الوصاية أو وصيًا وحده على العرش .

ومعنى هذا أن يكون رأس الدولة تحت سيطرتهم وعميلاً من عملائهم .

وهذا لون آخر من ألوان استعمال كلمة «فراغ» !

واليوم أخشى أن تقع أمريكا في نفس أخطاء بريطانيا التي نسفتها وقذفت بها إلى أسفل سافلين .

فيجب أن تعرف أمريكا وتحدد معنى كلمة الفراغ بدلاً من أن تستعير تعاريف بريطانيا لهذه الكلمة .

فالفراغ الوحيد الذي كان في الشرق الأوسط هو الدس والمؤامرات التي كانت تحيكها بريطانيا للإيقاع بين شعوبه وبين أبناء البلد الواحد .

والفراغ الوحيد الذي كان فيه الأردن مثلاً هو جلوب والمعاهدة وقد ذهبا وامتلأ الفراغ بأبناء الأردن وبالأسلحة العربية غير المقيدة بشروط .

والفراغ الوحيد الذي كان في مصر هو الاتفاقية المصرية البريطانية التي جلبت على مدنها القنابل البريطانية وقتلت نساءنا وأطفالنا باسم الصداقة وقد ذهبت هذه الاتفاقية إلى الجحيم وانسد الفراغ إلى الأبد .

والفراغ الوحيد الذي كان في سورية هو المؤامرة التي تصنعها بريطانيا وعملاؤها لتمزيق الوطن السوري وتوزيعه على إسرائيل وتركيا ، وقد قضت سورية على هذه المؤامرات في مهدها وهى على أتم استعداد للقضاء على الجديد منها .

لقد ظلت بريطانيا تتوسل بنظرية الفراغ حتى دمرت مصالحها ومركزها نهائيًا في الشرق الأوسط .

وبريطانيا اليوم تحيك المؤامرات في محاولة يائسة لكي تستعيد سمعتها ومركزها ولكنها على العكس من ذلك تتردى في الفشل والفضيحة والعار كل يوم . . .

وليس عندنا فراغ في الشرق الأوسط بعد أن انسد بدفن النفوذ البريطاني المتآمر إلى الأبد .

والذي عندنا اليوم في هذه المنطقة هي إرادتنا وتصميمنا على التحرر والمحافظة على سيادتنا كاملة .

لدينا اليوم صداقة فقط ، من يريدها يجب أن يكون شريفًا ، ومن يحاول التلاعب بها فلينتظر مصير بريطانيا ، وبئس المصير .

الفصل الثامن

ماذا يريد العرب؟

على هامش البيان

كتبت مقالات هذا الفصل بمناسبة البيان الذي أصدره المؤتمر العربي المنعقد من الملك سعود ، وفخامة شكري القوتلي ، والرئيس جمال عبد الناصر والملك حسين الذي عقد في فبراير سنة ١٩٥٧ ، وأعلنوا فيه التمسك بالوحدة العربية ، وحقوق العرب في فلسطين ، وسيادتهم على أراضيهم ومياههم ، والتمسك بسياسة الحياد الإيجابي محافظة على مصالحها القومية ، ونبدأ بنشر هذا البيان :

« نص البيان المشترك » :

عقد في القاهرة في الفترة ما بين ٢٥ رجب عام ١٣٧٦ الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٧ اجتماع بين جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وجلالة الملك حسين الأول ملك المملكة الأردنية الهاشمية ، وفخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية ، والسيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر ورجال حكوماتهم ، وهو الاجتماع الرابع من سلسلة الاجتماعات التي يعقدونها بين آونة وأخرى لدراسة الموقف الدولي والتباحث في القضايا التي تمس الأمة العربية وتؤثر في مجرى حياتها ونهوضها وتقدمها وحفظ كيانها .

❊ جهود الملك سعود في أمريكا :

ولقد استعرض المجتمعون الجهود المشكورة التي بذلها صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز خلال زيارته للولايات المتحدة الأمريكية وما أوضحه جلالته للمسئولين فيها من وجهات النظر العربية حول مشاكل الشرق

الأوسط وما تناوله البحث من أمور .

٭ سيادة مصر على القناة وعواقب عدم الانسحاب :

كما أوضح جلالته للرئيس الأمريكي بصورة خاصة حقوق العرب وقضاياهم بما في ذلك العدوان الأخير على مصر ونتائجة ، وحق مصر في سيادتها على قناة السويس ، وخطورة ما ينتج عن تمرد إسرائيل على قرارات الأمم المتحدة التي تنص على الانسحاب بدون قيد أو شرط من قطاع غزة وخليج العقبة إلى ما وراء خطوط الهدنة ، وذلك دون تحقيق أي مكاسب لإسرائيل نتيجة للعدوان الثلاثي .

ويؤكد المجتمعون أن دولهم حريصة على أن تقوم بدورها في المجتمع الدولي وأن تساهم بنصيبها في إرساء العلاقات الدولية على أسس تنحو بها نحو السلام والعدالة والرخاء بما يكفل احترام سيادتها ومصالحها .

إن الدول العربية المجتمعة وقد ازدادت قوة بوعي شعوبها ، وازدادت إيمانًا بسلامة أهدافها ورسوخ فكرتها لتؤكد ما سبق أن أعلنته من عزمها على تجنب الأمة العربية مضار الحرب الباردة والبعد عن منازعاتها ، والتزام سياسة الحيادالإيجابي محافظة بذلك على مصالحها القومية . وكذلك تؤكد أن الدفاع عن العالم العربي يجب أن ينبثق من داخل الأمة العربية على هدى أمنها الحقيقي وخارج نطاق الأحلاف الأجنبية .

ويرى المجتمعون أنه رغم قرارات الأمم المتحدة وإجماع الرأي العام العالمي بضرورة انسحاب إسرائيل إلى ما وراء خطوط الهدنة فإن العدوان الثلاثي ضد مصر لا زال قائمًا بجميع آثاره ومظاهره طالما لم تنفذ إسرائيل قرارات الأمم المتحدة بالانسحاب دون قيد أو شرط .

٭ ٦ قرارات :

كما يرى المجتمعون أنه مما يهدد الأمن والسلام في منطقة الشرق الأوسط ما يعانيه أهالي قطاع غزة على يد إسرائيل من أشد ألوان التنكيل والتعذيب . ولذلك قرر المجتمعون :

١ ـ العمل على انسحاب إسرائيل فوراً إلى ما وراء خطوط الهدنة دون قيد أو شرط .

٢ ـ التمسك بحقوق عرب فلسطين كاملة وبسيادة العرب على أراضيهم ومياههم الإقليمية .

٣ ـ وجوب تعويض مصر من قبل الدول المعتدية عن جميع الأضرار والخسائر التي لحقت بها من جراء العدوان .

٤ ـ رفض جميع المحاولات التي تتجه للانتقاص من سيادة مصر وحقوقها في قناة السويس إذ أن قناة السويس جزء لا يتجزء من مصر وسيادتها عليها كاملة ، وحرية الملاحة فيها مكفولة طبقًا لأحكام اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ .

٥ ـ استنكار العدوان البريطاني على أراضي اليمن والتضامن معها في صد هذا العدوان .

٦ ـ التأييد المطلق لحق عرب الجزائر في الحرية والاستقلال وتمجيد نضالهم الجبار ضد قوى الاستعمار .

ويرى المجتمعون أن سياستهم التحررية المنبعثة عن إيمانهم بحق أمتهم في أن تحيا حرة مستقلة ، والمستندة إلى قوميتهم العربية التي برهنت للعالم أنها

حقيقة قائمة ، لتزيدهم تضامنًا فيما بينهم لبلوغ أهداف الأمة العربية في الحرية والوحدة والتقدم .

لقد صيغت كل كلمة وكل جملة في بيان الكبار بحيث تعبر عن مشاعر وأحاسيس العرب في كل مكان ، وبحيث تعلن للدنيا كلها أين تقف القومية العربية المتحررة .

ففي عبارة رصينة واضحة يقرر البيان أن العرب يرحبون بكل يد تمتد لمصافحتهم ، فالعرب لا ينتصرون لمعسكر على معسكر ، وإنما يريد العرب الحرية والسيادة لأوطانهم ، والسلام والأمن للعالم أجمع .

وحين يتمسك الكبار باسم شعوبهم بمبدأ الحياد الإيجابي ، فإنما هم يؤكدون رغبة شعوبهم وشعوب كثيرة من هذا العالم في تجنب كل ألوان الحرب من باردة إلى ساخنة حتى تتوجه كل الجهود إلى بناء المجتمعات ورفع مستوى معيشة الفرد من أجل رخاء بني الإنسان .

ومن الطبيعي أن لا يفرض على أي إنسان الطريقة التي يحمي بها بيته ، لذلك كان البيان موفقًا أروع التوفيق حين قرر أن الدفاع عن العرب يجب أن ينبثق من داخل العرب لا أن يفرض عليهم من الخارج على صورة أحلاف أو مواثيق ، فكل عربي يهمه أمر الدفاع عن بيته وأهله ودياره ، وتاريخ العرب في هذا الشأن كله بطولة وشجاعة وتضحية وإباء ، لذلك فإن المنطق البسيط يحتم أن يكون أمر هذا الدفاع منبثقًا من كيان صاحب المصلحة في هذا الدفاع لا أن يفرض عليه فرضًا من خارج أهله ودياره وأرضه .

لقد أحاط البيان بجميع المشاكل التي تواجه الأمة العربية وأظهر فيها للعالم الخارجي الخطأ والصواب ، وأظهر أكثر من ذلك أن القومية العربية

أصبحت حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وإنها ليست متعنتة ولا صاخبة ولا متجنية وإنما هي تسعى وراء الحقوق الشرعية المقدسة للعرب في أوطانهم وديارهم من غير عدوان على أحد ولا مساس بحقوق أحد .

ولن يرفض العرب أبدًا مصافحة اليد التي تمتد إليهم بالحق والعدالة والمساواة .

ولن يفرط العرب في حقوقهم ما عاش عربي في أطراف هذه الأرض .

وكما كان العدوان الثلاثي نقطة تحول في تاريخ العالم كله ، فإن بيان أقطاب العرب نقطة تحول في تاريخ الأمة العربية .

ومن خلال سطور هذا البيان نستطيع نحن العرب أن نقرأ قصة كفاح الأمة العربية ومراحل تطورها عبر السنين ، وهي القصة التي كتبتها ولا تزال تكتبها إلى يومنا هذا دماء العرب وعزيمة العرب .

وقد استهل أقطاب العرب البيان بشكر أخيهم الملك سعود على ما قام به من جهود زيارته للولايات المتحدة وما أوضحه جلالته للمسئولين فيها من وجهات النظر العربية .

أما ما تحسه الشعوب العربية نحو سعود فهو شيء أكثر من الشكر وأروع من الامتنان ، إنه الفخر بهذا العاهل العربي الذي حمل الأمانة عن العرب جميعًا فأداها ، وناقش وناضل لا من أجل المملكة السعودية وإنما من أجل الأمة العربية جمعاء .

لقد سافر الملك سعود إلى الولايات المتحدة في ظروف عصيبة مشحونة .

فإنه بعد فشل العدوان ، كان لابد أن يعرف المسئولون في الولايات المتحدة حقيقة وجهة النظر العربية التي شوهتها بريطانيا وفرنسا بمختلف

الادعاءات والأباطيل ، وتشوهها إسرائيل كل يوم عن طريق النشاط الصهيوني المريب .

وفي الولايات المتحدة أربعة معسكرات تعمل ضد العرب ، المعسكر الأول هو أولئك الذين يعطفون على إنجلترا ، والمعسكر الثاني هو أولئك الذين يتحيزون لفرنسا ، والمعسكر الثالث هو ذلك الذي ينتصر لإسرائيل .

أما المعسكر الرابع وهو الأهم فهو أولئك الأمريكيون الذين يعتقدون أن مجرد شراء مصر للأسلحة من الكتلة الشرقية معناه أن مصر قد أصبحت عدوة لأمريكا ، وإن إصرار العرب على الحياد الإيجابي يضر بمصالح أمريكا.

لذلك جاءت زيارة الملك سعود حاسمة ، فالملا سعود لم يكن يتحدث باسم السعودية وحدها وإنما كان يتحدث باسم ... رية وباسم الأردن وباسم مصر وباسم كل عربي يعرف العزة ويعرف الك... .

وعاد إلينا سعود بعد أن أدي واجبه و... به ربه وضميره وأمته ، فقد قال كلمة الحق واضحة عالية فسعدنا ... نحن العرب . وقد عرفناه دائمًا حريصًا على العهد ثابتًا على المبدأ ، أخًا للعرب في السراء والضراء .

فماذا يريد العرب ؟

وما هي حقيقة المعركة ؟

ماذا يريد العرب ؟

وهل يخدم العرب في مرحلة كفاحهم الحالية روسيا أم الشيوعية ؟

وهل في التزام العرب لمبدأ الحياد الإيجابي ما يهدد أمن أمريكا أو غيرها من الدول ؟

إنني أذكر الأيام القليلـة التي تلت إيقاف إطلاق النار في ٧ نوفمـبر سنة ١٩٥٦ ، وأذكر أن بريطانيا وفرنسا لكي تغطيا موقـفهما أمام أمريكا لجأتا إلى الترويج لما سموه وقتذاك المؤامرة الشيوعـية الكبرى التي زعموا أن مصر كانت تعد لهـا مع روسيا لـكي يدخل الشرق الأوسط كله تحت سـيطرة الشيوعـية بمسـاعدة مـصـر ، وذهب خيـالهم إلى الحـد الذي قالوا إنـهم عثـروا على مستندات تؤيد هذا الزعم ، ثم خرجت إسرائيل على العالم بحكاية استيلائها على ما قيمته خمـسون مليونًا من الدولارات من الأسلحة والعتاد الروسي ، وردت بريطانيا على الفور هي وفرنسا بأن كـميات هائلة من الأسلحة الروسية كانت مخزونة في مصر وفي انتظار المتطوعين الروس لكي يستخدموها !

وأذكر أيضًا أن حديث هذه المؤامرة قـد انهار وتوقف فجأة بعد أن أعلنت مصر تحـديها لمن يثبت هذه الخـرافة الكبيرة ، وطلبـها - أي مصر - من هـيئة الأمم المتحدة أن تقوم على الفور بالتحقيق .

وأذكر أيضًا أن إيدن صاحب فكرة هذه الخرافـة أمسك فجأة عن الخوض في الحديث عنها بعد أن كان قد لمح لمجلس العموم البريطاني عنها ، بل أكثر من ذلك انهـار وخارت قواه وخـرجت زوجتـه في حفل قـبل سفرهـما إلى جمايكا لكي تنفي باسمه حديث تلك الخرافة عن الشيوعية .

*** نخرج من هذه الرواية بعدة حقائق :**

الأولـى : هي أن بريطانيا وفرنسا وإسرائـيل أرادوا في محاولة يائسة بعد فشل مؤامراتهم أن يبرروا عملهم العدواني ضد مصر أمام العالم وأمام أمريكا على وجه الخصوص بعد أن فشلوا في عدوانهم وفي جعله أمرًا واقعًا .

الثـانيـة : هي أن المتآمـرين الثلاثة اختـاروا في هذه المحاولة اليـائسة أن يضربـوا على الوتر الحسـاس عند أمريكا وهو الشـيوعـية لكي ينالوا تأييـدها

للجولة الثانية .

ثم بدأت بعد ذلك الحملة المضللة ضد سورية واتهامها بأنها تعد للهجوم على تركيا تارة وعلى العراق تارة أخرى بمساعدة روسيا ، وأن أسلحة روسيةقد تكدست فيها إلى آخر ما يعرفه كل من عاش في أحداث سنة ١٩٥٦ ، وانتهت هذه الحملة بالفشل أيضًا عندما صمدت مصر ، وكشفت سورية عن المؤامرة التي كان يراد بها تمزيقها وجعلوا من تلك الحملة تمهيدًا لها.

وهدف بريطانيا وفرنسا وإسرائيل هو تضليل العالم عن حقيقة أهداف كفاح التحرر العربي في مرحلته الحالية ، وإقناع أمريكا على وجه الخصوص أن العرب إنما يخدمون في مرحلة كفاحهم الحالية روسيا والشيوعية !

أما بالنسبة للعالم فإن الخدعة لم تنطل على شعوبه ، وظهر استنكار العالم المرة تلو المرة في القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة فيما يشبه الإجماع باستنكار العدوان ودمغ المعتدين بالتآمر والتنكر للخلق والمواثيق الدولية .

أما بالنسبة لأمريكا فإنها وإن سايرت الرأي العام العالمي وأيدت قرارات الأمم المتحدة فإن هذه السياسة على ما بدا ليست إلا سياسة إيزنهاور الشخصية وليست سياسة حكومته ولا الكونجرس ولا كثير من ذوي السلطة والنفوذ بأمريكا . أولئك الذين وصفتهم من قبل بأنهم معسكرات تعطف بها بريطانيا وأخرى على فرنسا وثالثة على الصهيونية ، ورابعة تعتبر أن في شراء مصر وسورية السلاح من الكتلة الشرقية وتمسك العرب بمبدأ الحياد الإيجابي ما يهدد أمن ومصالح أمريكا .

وقد يكون من الخير أن نعود فنشرح نحن العرب أهداف كفاحنا التحرري للعالم كله ، ولأمريكا على وجه الخصوص لكي نبرىء ذمتنا في هذا الوقت الذي يجتاز فيه العالم مرحلة تطور خطيرة لا يجب أن تهمل فيها الحقائق أو تزور الوقائع .

ومحور كفاحنا العربي التحرري اليوم هو الحياد الإيجابي وهو ليس كلامًا حماسيًا نقوله ، أو نعرة سياسية نستخدمها للمناورة في ميدان السياسة ، وإنما هو إيمان ينبع من قلب كل عربي وحقيقة تاريخية يحتمها الكفاح العربي عبر السنين ، فلقد جربنا نحن العرب سياسة الانحياز فخرجنا منها ممزقين مستعمرين وضاعت أرضنا وتشرد أهلنا وذبحت أطفالنا . . . .

ولنعد إلى التاريخ

فقبل الحرب العالمية الأولي وفي أثنائها قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين من أجل تحقيق أهداف التحرير العربي ، وكانت هذه الثورة منحازة إلى بريطانيا ، فما الذي حدث ؟

حارب الشريف حسين إلى جانب بريطانيا ضد تركيا وألمانيا ، وكانت أعمال البطولة التي قام بها المرحوم الملك فيصل بن الحسين هو وجيشه العربي هي العامل الحاسم في الانتصارات التي كسبها الحلفاء بقيادة اللنبي في فلسطين وسورية ولبنان بتلك السرعة الخاطفة مما أخرج تركيا وهي حليف ألمانيا الرئيسي من الحرب ، وترتب على ذلك انتصار الحلفاء في الغرب كما في الشرق .

وكان جزاء العرب من بريطانيا وفرنسا ليس التجاهل فقط ، وإنما بيعت فلسطين لليهود علنًا بإصدار وعد بلفور سنة ١٩١٧ في الوقت الذي كان مداد اتفاقاتهم مع الشريف حسين لم يجف ، وأغارت فرنسا على سورية بعد النصر وفرضت عليها سيطرتها بالحديد والنار بعد أن قتلت أبناءها في ميسلون وضربت دمشق بالقنابل وقتلت وذبحت الأبرياء تحت اسم الانتداب .

وانفردت بريطانيا بفلسطين وأخذت تمهد للصهيونية ولقيام إسرائيل بشنق أهلها من العرب وتجريدهم من السلاح ومن كل ما يدافعون به عن أنفسهم ، وبسن القوانين التي تبيح لليهود كل شيء وتحرم العرب أصحاب الأرض والوطن من كل شيء .

وانفردت بريطانيا أيضًا بمصر ففرضت عليها حمايتها ثم احتلالها ،

وبالعراق فـفعلت مـعه المثل ، ولا تزال إلى يومنـا هذا تفرض سيطـرتها عن طريق الأحلاف ،والعملاء في العـراق بعد أن طردت من مصر ثم هزمت في معركة العدوان .

لم تقتـصر مكافأة بـريطانيا للعرب على انحـيازهم لهـا في الحرب على فلسطين ومـصر والعـراق فقط ، وإنما امـتدت إلى الخليج الفـارسي وجنوب الجزيرة العربية واليمن على نحو ما كتبته الصحف وقتذاك .

ونفس الحال ينطبق على فـرنسا حليفة بريطانيا التي انحـاز لها العرب في الحرب الأولى ، فـهي التي هدمت دمشق ، واسـتعمـرت تونس ومراكش ، ونزعت ملكية الجزائر فـادعت أنها أرض فرنسية وأن أهـلها العرب والمسلمين إنما هم من اللاتينيين الفرنسيين .

كان هذا ثمن الانحياز بعد الحرب الأولى .

أما في الحرب الثانية وحـوادثها لا تزال ماثلة في أذهاننا ، فإن العرب لم يكونوا قد آمنوا بعد بالحديث الذي يقول : «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**» فانحازوا أيضًـا إلى جانب الحلفاء ، وكان جـزاؤهم في هذه المرة أشد وأنكى من جزائهم بعـد الحرب الأولى ، فإنه مـا إن انتهت هذه الحـرب حتى هبت الشعوب تطالب بحريتها واستقـلالها حسب مبادئ الأطلنطي المشهورة ، بعد أن قامت بواجبهـا في نصرة الحلفاء وسخرت أرضها وبلادها وأقـواتها لخدمة قضيتهم .

وها هو ملخص ما جنيناه نحن العرب من سياسة الانحياز :

قدمت العـراق أرضها وموانيـها ومطاراتها وأمـوالها لبريطانيـا وحين قام الشعب العراقي يطالب بحقه في الاستـقلال بعد النصر كان جزاؤه أن قدمت

إليه أولاً معاهـدة بورتسموث فلما ثار ورفضهـا . وضعت بريطانيا في الحكم عـميلهـا الأول فصـادر حريات الشـعوب وأقـفل الصحف ومـلأ السجـون والمعتـقلات بالأحـرار والأبرياء وأمضى مع بريطانيـا رغمًا عـن إرادة الشعب حلفًا أنكى وأبشع من مـعاهدة بورتسمـوث ، وإلى يومنا هذا لا يزال شعب العراق يئن ويكافح .

وقدمت مصر أرضها وموانيها ومطاراتهـا لخدمة بريطانيا وقضية الحلفاء ، وأقرضت مصـر بريطانيا أربعمائة مليون جنيـه إسترليني اقتطعتهـا من أقواتها لكي تطعم جنود بـريطانيا وجنود الحـلفاء ، وضـربت القـاهرة والإسكندرية بقنابل الطليان والألمان ومـاتت المئات من المصريين لأن قواعد بـريطانيا كانت على أرضهم حول بيوتهم . ودافع الجيش المصري عن قناة السويس وشهد له قواد بريطانيا ، وبيع قطن مصر بسعر التراب لبريطانيا لأنها كانت تريد ذلك ، وأودع المصريون الأحـرار السجون والمعـتقلات كلمـا كانت تشـاء بريطانيا ، وفرض على مصر حكم إرهابي طيلة فترة الحرب كإرادة بريطانيا .

وجاء النصر . وذهب رئيس وزراء مصر بـعد انتصار الحلفاء سنة ١٩٤٥ إلى السفارة البريـطانية في القاهرة لكي يسلم السفير البـريطاني مطالب مصر في جلاء قـوات بريطانيـا واستكمـال سيادة مـصر ، فـما كـان من السفـير البريطاني إلا أن اعتبر أن هذه المطالب سفه من مصر وجنون ما بعده جنون ، وقامت المـظاهرات في مصر تـطالب بالجلاء سنة ١٩٤٧ فـتصدت لهـا جنود بريطانيا في مـيدان الإسمـاعيلية وأطلقت رصـاص الإمبراطورية على شـباب مصر فقتلتـه وفعلت نفس الشيء في الإسكندرية ، ثم وقف تشرشل يطالب مصر بعد كل الذي أدته لبريطانيا بثمن حماية بريطانيا لمصر !

وكانت خاتمة المطاف ذلك العدوان الغـادر الذي دبرته بريطانيا على مصر

وهي لم تزل مدينة لمصر بل إنها إمعانًا منها في حفظ الجميل لمصر جمدت ما لمصر عليها من دين أخذته وقت شدتها أقواتًا وأموالاً .

وفي سورية ، ضربت دمشق للمرة الثانية بالقنابل بعد الحرب الثانية ، ودمرت دار البرلمان لأن سورية قامت تطالب بحقها في السيادة والاستقلال بعد أن حمت ظهر فرنسا في الحرب الثانية .

وفي لبنان اعتقل رئيس جمهوريته ورئيس وزرائه بمعرفة السلطات الفرنسية علنًا وعلى رؤوس الأشهاد وأودعا قلعة أراشيا لأن لبنان كان يطالب فرنسا بالوفاء بالعهد والجلاء عن البلاد .

وفي المغرب ، حارب الجنود المغاربة في صفوف الحلفاء من أجل قضيتهم ضد المحور ، ولا تزال موقعة كاسينو المشهورة في إيطاليا تروي قصص البطولة الخالدة للجنود العرب من المغاربة ، وما إن انتهت الحرب حتى كان جزاء مراكش البطش والتقتيل من قبل فرنسا إلى أن جاء اليوم الذي خلعت فيه فرنسا سلطان مراكش ونفته لأنه تمسك بحقوق شعبه في الحرية والاستقلال ، ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا تحتل مراكش بجنودها حتى بعد أن أمضت معها معاهدة الاستقلال .

وكان جزاء تونس أن راحت الجمعيات السرية الفرنسية تشيع القتل والتخريب في تونس لمجرد أنها قامت تطالب بالاستقلال ، ولا تزال تونس تكافح إلى يومنا هذا بقاء الجيوش الفرنسية والموظفين الفرنسيين .

أما الجزائر ، فإن فرنسا قد كافأتها بمحاولة تأكيد نزع ملكيتها من جديد، وبتجريد أسلحة وأساطيل حلف الأطلنطي لإبادة شعبها وتقتيل نسائها وأطفالها ، لا لشيء إلا أنهم يطالبون بحقهم في الحياة الحرة الكريمة على

أرضهم .

وفي اليمن اليوم قتال ، وفي جنوب الجزيرة العربية قتال ، وفي البحرين نضال ، وعلى البوريمي اعتداء ، وعلى إمارة عمان اعتداء ،وبريطانيا التي وقفنا إلى جانبها في الحرب الثانية هي المعتدية في كل هذه الأماكن العربية التي تبعد عن بريطانيا آلاف الأميال .

وكانت أبشع جريمة ارتكبتها بريطانيا وحلفاؤها بعد الحرب الثانية في حق العرب الذين وقفوا إلى جانب قضية الحلفاء هي مأساة فلسطين العربية .

إن هذه الجريمة ستظل وصمة في جبين الإنسانية ووصمة لأولئك الذين تسببوا فيها لن تمحى من القلوب والأذهان .

شعب يطرد من أرضه ودياره وبيوته ويؤتى بعصابات من قطاع الطرق لتملك الأرض وتملك الديار وتسكن البيوت وأصحابها مشردون هائمون ، ثم يعترف بتلك العصابات كدولة !

لقد صنعت بريطانيا هذه الجريمة منذ سنة ١٩١٧ وأتمها الرومان سنة ١٩٤٨ باسم أمريكا حين اعترف بدولة قطاع الطرق . كان هذا هو ثمن انحيازنا نحن العرب في الحربين الماضيتين ، من أجل ذلك كان حتمًا ضروريًا أن يتجه الكفاح التحرري العربي إلى الحياد الإيجابي بعد أن قاسى العرب من سياسة الانحياز كل هذه الكوارث والأهوال .

ولم يعوق هذا الكفاح اليوم أو يعطله اتهام البعض له بأنه يخدم روسيا أو يخدم الشيوعية ، فطالما اتهم الكفاح العربي في الماضي بأنه يعمل لصالح قوة أجنبية ولكن ذلك الاتهام لم يكن ليعيش أو يعيق زحف القومية العربية ، ففي جميع مراحل كفاح الأمة العربية ، كان أعداء العرب أو الذين لا

يفهمونهم يحاولون اتهام كفاحهم بأنه في صالح جبهة أجنبية .

فقبل الحرب العالمية وأثناءها ، أشييع أن الحركة الوطنية العربية تخدم مصالح المحور النازي الفاشيستي .

واليوم تزعم الجهات أن الحركات الاستقلالية العربية إنما تخدم مصالح روسيا وأنها لذلك تلقي منها التشجيع والتحريض !

وقد أثبت التاريخ أن الكفاح العربي في جميع مراحله إنما كان دائمًا من أجل العرب ، والعرب وحدهم .

فبمجرد انتهاء الحرب الأولى أصبح الكفاح العربي موجهًا ضد بريطانيا بعد أن استيقظ العرب على حقيقة مريرة مؤلمة هي أن بريطانيا كانت تستغل ثروتهم لصالحها وبدلاً من أن تعترف باستقلال البلاد العربية التي انسلخت عن الإمبراطورية العثمانية بادرت ففرضت سيطرتها عليها .

ولو انتصرت دول المحور في الحرب الثانية وحاولت فرض سيطرتها على البلاد العربية لقاومتها هذه البلاد كما قاومت بريطانيا وفرنسا من أجل الحرية والاستقلال .

كيف يفهمون الحياد ؟

نخلص من ذلك إلى أن اتهام الكفاح العربي اليوم بأنه في خدمة روسيا أو الشيوعية إنما هو سخف يريد به أعداء العرب تشويه نضالهم ، وأبسط دليل على ذلك أن الشيوعية محرمة في معظم البلاد العربية في الوقت الذي تقوم فيه في فرنسا وفي بريطانيا وفي أمريكا أحزاب شيوعية رسمية .

إلا أن هناك حقيقة أخرى يجب ألا نغفلها ، وهي فهم روسيا للحياد الإيجابي وفهم الغرب للحياد الإيجابي .

فعندما نشأت فكرة الحياد ، خشى الاتحاد السوفيتي أن تكون هذه الفكرة معادية له ، وأخذ في مهاجمة الداعين لها ، وحين اتضح له أن الحياد يعني عدم الانحياز إلى كتلة دون أخرى وأن هدفه هو السلام ، بادر فغير موقفه من المحايدين وأصبح يحترم سياستهم ، وأبلغ مثل على ذلك علاقة الاتحاد السوفيتي بالهند وعلاقته بمصر .

فليست الهند ولا مصر بلاداً شيوعية ، ومع ذلك تقوم بين البلدين وبين الاتحاد السوفيتي علاقات أساسها الاحترام المتبادل على قدم المساواة ، وعدم التدخل في شئون الغير وحرية كل بلد في اختيار النظم التي يختارها ، فلم يحدث مثلاً أن وضع الاتحاد السوفيتي شروطًا لشراء قطننا ، ولم يطلب منا الاتحاد السوفيتي إقامة قواعد في أرضنا ، ولا الدخول في أحلاف ضد أحد ولا فرض علينا بعثة عسكرية ، ولا حاول من قريب أو بعيد أن يتدخل في شئوننا .

أما فهم الغرب لفكرة الحياد الإيجابي فما زال بعيداً كل البعد عن الواقع

والصواب .

ففي بريطانيا وفرنسا مثلاً يعني الحياد الإيجابي ضياع سيطرتها الاستعمارية على دول كانت بالأمس نهبًا لهم يتصرفون في أرزاقها ومقدراتها .

وفي أمريكا لا تزال الكثرة تعتقد أن الحياد الإيجابي ليس إلا شعاراً للشيوعية وهم للأسف لا يزالون يقولون بمبدأ : من ليس معنا فهو علينا .

وهذا خطأ فاحش يقع فيه الغرب اليوم لا بالنسبة للعرب وحدهم وإنما بالنسبة لشعوب كثيرة في مختلف أنحاء العالم .

إن الحياد الإيجابي بغض النظر عن كل اتهامات أصبح ضرورة حتمية يقتضيها التطور في هذه المرحلة من مراحل كفاح الأمة العربية ومفهومنا له نابع من صميم تاريخنا المرير في الكفاح ومقاومة السيطرة الأجنبية .

فالواقع يحتم علينا ألا ننحاز لكتلة دون أخرى بعد أن عرفنا على يد بريطانيا وفرنسا كيف يكون جزاء الانحياز .

ونحن لا نريد تدخلاً في شؤوننا ولا سيطرة أجنبية تفرض علينا ، ونحن نريد أن نتبادل المنفعة مع الجميع على قدم المساواة .

ونحن نصر على أن نصادق من يصادقنا وأن نعادى من يعادينا ونحن نرفض أن نكون ذيلاً لأحد أو تابعًا لأحد أو منطقة نفوذ لأحد.

هذا هو منطق كفاحنا العربي اليوم . فكيف يمكن أن نحققه ؟

إنه لا سبيل إلى ذلك إلا الحياد الإيجابي . فهو وحده الذي نستطيع أن نحقق من خلاله هذه المثل ، وسيصبح أمرًا يدعو إلى السخرية أن يدعي البعض أننا ننصر كتلة على كتلة أو فريقًا على فريق في الوقت الذي يحتم علينا فيه كفاحنا أن نقف في الوسط لكي نعيش .

والحياد الإيجابي ليس سلبية كما يتوهم البعض ، فهناك فرق بين الحياد السلبي والحياد الإيجابي .

فالسلبية لابد أن تخدم اتجاهًا من اتجاهات القوى العالمية ، أما الإيجابية فإنها تتسم بأنها كفاح وثبات عند وجهة نظر محددة .

فالحياد الإيجابي والحالة هذه ليس الوقوف بعيدًا عن العالم وما يجري فيه كما يوحي معنى الحياد السلبي وإنما هو مسؤولية والتزام ذو شقين ، الشق الأول وطني والشق الثاني عالمي .

أما الشق الوطني فهو يعني صيانة القومية ، وتنميتها والدفاع عن حرية الوطن ، وتخليصه من كل سيطرة أجنبية .

أما الشق العالمي فهو يعني العمل مع المجموعة البشرية من أجل القيم ومن أجل الأمن والسلام حتى يمكن توفير حياة كريمة لجيلنا وما سيأتي بعده من أجيال .

والآن وقد انسحبت إسرائيل ، في ضجة وصخب ، وبعد طول عناد ، يجب أن نضع أمامنا هذه الأسئلة :

فيم كان تلكؤ إسرائيل في الانسحاب ؟ فيم كان تحديها لقرارات الأمم المتحدة ؟ فيم كان تمردها على إرادة الرأي العالمي ؟ هل كانت تستمد العناد والتحدي ، والتمرد ، من ذاتها ؟

كيف يمكن أن تكون لها هذه القوة التي لا تبالي أمم الشرق ولا أمم الغرب ، ولا الأمم كلها متحدة ؟

إن إسرائيل أذكى من أن تقف وحدها ، وأضعف من أن تتحدى أية قوة متجمعة ، أو متفرقة فلماذا اندفعت في هذا التيار الخطير الذي عرضها للسخط ، والنقمة وإسال دموع رجلها المسئول ، فأعلن قرار الانسحاب وهو

يبكي ؟

إن إسرائيل كانت مدفوعة إلى هذا التيار بقوة الاستعمار ، كان مطلوبًا منها أن تصبر حتى يرى المستعمرون ماذا سيكون من شأن العرب ؟ هل ستتفرق كلمتهم ؟ وفي هذا الجو لمعت بروق ساطعة اللمعان ، بروق تحمل الإغراء ، وبروق تحمل التهديد .

وفي هذا الجو العاصف اجتمع أقطاب العرب ، فلم يأخذ البريق أبصارهم ، ومضوا في طريقهم الشائك الوعر ، الطريق المؤدي إلى حرية العرب ، والتمسك بحقوق الشعوب ، وتأمين السلام العالمي .

وكان هذا امتحانًا للقومية العربية ، وكانت نتيجة الامتحان انتصارًا عميقًا لها ، وكان تعجيلاً بانسحاب إسرائيل .

إن القرارات التاريخية التي أصدرها أقطاب العرب ، قد عبرت عن إرادتهم في إصرارهم على أن يعيشوا أحرارًا ، لا يعادون أحدًا ولا يتبعون أحدًا ولا يسمحون بالعدوان عليهم من أحد ، لن يكونوا ذيولاً ، ولا أتباعًا، ولا يرضون أن يكونوا مخلبًا لأي قط ، ولا نجمًا يدور في أي فلك .

لقد سلك العرب هذا الطريق الشاق المرير من أجل حريتهم وحقهم وكيانهم ، من أجل أن يعيشوا في سلام ويعيش معهم العالم في سلام ، ومن أجل أن تحيا بلادهم فلا تصبح وقودًا لنار الحرب ، ولا ميدانًا للقنابل الذرية والهيدروجينية .

من أجلنا نحن ، من أجل تراثنا وحضارتنا وقوميتنا ، من أجل مبادئنا ، من أجل أبنائنا ، من أجل ابتسامة أطفالنا قررنا الحياد الإيجابي ، والوحدة العربية ، والدفاع عن أنفسنا بأنفسنا ، خارج نطاق الأحلاف .

الفصل التاسع

شـــرق وغـــرب

الشرق شرق والغرب غرب

«الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا» .

إن كبلنج على حق .

فلن يلتقي الشرق والغرب أبدًا ما دامت هذه هي طريقة فهم الغرب للشرق ، وما دامت هذه هي الطريقة التي تتناول بها الصحافة في الغرب معالجة مثل هذه الأحداث التاريخية وتحليلها للشعوب الأمريكية والإنجليزية والفرنسية .

وأشفقت على هذه الشعوب ، فالرجال الرسميون في الغرب وصحافة الغرب كلهم يخفون الحقائق عن شعوبهم عمدًا وبطريقة تجعلنا دائمًا على حذر ، ودائمًا متيقظين ، في الوقت الذي تعكس فيه على شعوب الغرب القلق وصنوفًا كثيرة مما يسمونه الحرب الباردة .

ومن سخرية القدر أن هذه الحرب الباردة كان مصمموها يريدونها لنا حتى نخاف فنظل داخل الدائرة الاستعمارية الخبيثة ، ويشاء الله ألا تنقلب إلا عليهم بل وتعكسها صحفهم في كل يوم على شعوبهم .

خوفًا من الشرق الذي تحرر ، ورعبًا من الشرق الذي يريد أن يهلك الغرب .

إلى آخر ما تقوله صحافة الغرب كل يوم ومحوره الوحيد هو أن في حرية الشرق خطرًا يهدد كيان الغرب .

ويظهر أن عقلية هؤلاء القوم قد فسدت نهائيًا وأن نفوسهم قد انحطت بها عقدة الاستعمار إلى درك لا يرجى معه فهم أو إقناع .

ومرة أخرى يصبح كبلنج على حق .

فإن الصحافة الأمريكية والصحافة الإنجليزية والصحافة الفرنسية تردد كلها نغمًا واحدًا هو الدعاء لله ألا يسفر اجتماع بريوني ـ حين تم ذلك الاجتماع ـ عن كتلة حيادية تصبح كتلة ثالثة في هذا العالم .

نفس عقلية الكتل والأحلاف !

ولقد شمر كل كاتب عن ساعده في تلك الصحف وراح يثبت لقرائه أن قيام هذه الكتلة أمر غير ممكن عمليًا بينما انبرى آخر يتكهن بقيام كلتة أخرى تسمى كتلة شرق البحر الأبيض المتوسط وتضم يوغوسلافيا واليونان ومصر ولبنان وسورية والأردن .

إلى آخر ما جاء في خيال هؤلاء الموجهين ، ولكن المؤسف أن هذه الصحف في بلاد الغرب الثلاث الكبرى تجمع على أن المجتمعين في بريوني يفكرون على طريقة الكتل والأحلاف الغربية .

ومرة ثالثة يصبح كبلنج على حق .

إنه ما من شك في أن اجتماع بريوني يعتبر أخطر حدث تاريخي في فترة ما بعد الحرب ، ومبعث هذه الخطورة يتمثل في الأمور الآتية :

١ ـ أنه لم يعد مصير للعالم ملكًا لدولة أو لدولتين ، ولم تعد مصائر البشرية وسلمها وأمنها من اختصاص ما كان يسمى بالكبار لأن تعبير الكبار قد انتهى أوانه .

٢ ـ إن أوروبا ـ لأول مرة في التاريخ ـ تخرج في شخص الزعيم تيتو على تقاليدها الموروثة فيضع تيتو يده في يد نهرو زعيم آسيا وفي يد جمال زعيم إفريقيا من أجل الحرية والسلام والتعايش .

ومغزى هذه المصافحة هو أنها مصافحة شعوب لا مصافحة حكام .

٣ ـ إنه نداء لكل شعوب الأرض يفتح لها طريق الإخاء والمحبة .

٤ ـ إنه ضربة في الصميم لبقايا الاستعمار الذي يترنح اليوم ، وأمل لكل الدول المستعبدة في الخلاص والتحرر .

وعبث أن يقلق الحكام والكتاب في الغرب نفوسهم ونفوس شعوبهم بفكرة الكتلة الثالثة .

فالكتلة الثالثة قد تشكلت فعلاً وعملاً ولا داعي لأن يوقع الثلاثة في بريوني وثيقة هذا التشكيل التي تقلق بال هؤلاء الحكام وأولئك الكتاب .

إن الكتلة الثالثة اليوم حقيقة قائمة وهي أقوى الكتل على الإطلاق . . .

إنها كتلة الشعوب التي تريد أن تستثمر مواردها لخير أبنائها ورفاهية شعوبها .

إنها كتلة الشعوب التي تعترف لكل إنسان بحقه في الحياة وحقه في رزقه وحقه في أمنه وحقه في وطنه وحقه في حياة أفضل ومستقبل مطمئن في عالم يؤمن بالقيم وبالحب وبالمساواة .

إنها كتلة الشعوب التي قاست من الاستعمار الذي سلب أموالها من أجل أن يبنى رفاهية في لندن وباريس ولاهاي وكثير من المدن الأخرى .

إنها كتلة الشعوب التي تريد السلام للسلام والحرية للحرية ، فهي لذلك لن تلجأ إلى مواثيق كميثاق الأطلنطي تضحك به على الناس وإنما ميثاقها كامن في صدور أبنائها في إفريقيا وفي آسيا وفي يوغوسلافيا ، وإرادة هذه الشعوب كفيلة بإملاء هذا الميثاق من غير أن يكتب ومن غير أن يوقع .

فسلام لك يا تيتو يا رجل أوروبا الحر .

وسلام لك يا نهرو يا رجل آسيا المكافحة .

وسلام لك يا جمال يا فخر شعبك وأصدقائك وزعيم أهلك وزعيم إفريقيا

ما هو الشرق وما هو الغرب؟

إنني أعتبر قرار تأميم قناة السويس ضربة من ضربات القدر التي تأتي لكي تختتم مرحلة معينة من تاريخ البشرية ولتبدأ في نفس الوقت مرحلة جديدة بتطور جديد وتاريخ جديد . . . .

والذي يقرأ صحف إنجلترا وأمريكا وفرنسا وكثير من دول أوروبا اليوم ومنذ أن أممت قناة السويس سيرى أن كلمة غرب وشرق تتردد في كل سطر ، وسيسمع نغمة جديدة تحذر الغرب من الشرق تارة ، أو تحرض الغرب على الشرق تارة أخرى ، وفي هذا التحذير أو ذلك التحريض تستطيع أن تلمس حقيقة واضحة جلية هي أن هذا العالم ينقسم إلى شرق وغرب وأن عقلية أهل الغرب قد نشأت وتربت على فهم الشرق أو التعامل معه من خلال مبدأين فقط أحدهما هو الحذر والتحذير وثانيهما هو الاعتداء والتحريض .

وحين أقول هنا شرق وغرب فأنا لا أعني ما اصطلح عليه اليوم من تعريف لأكبر كتلتين متنازعتين في العالم حين أطلقوا على روسيا ومن معها «شرق» وعلى «أمريكا» ومن معها «غرب» وإنما أنا أعود بهذه التسمية إلى أصولها عبر التاريخ ومع ركب الزمان ، وقد يكون ما عناه شاعر الاستعمار الإنجليزي كبلنج هو التفسير الأقرب إلى ما أعنيه من هذه التسمية حينما قال في قصيدته المشهورة :

الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا .

وحين نريد أن نضع حدوداً تفصل بين الشرق والغرب حتى نستطيع أن نتناول كل ناحية بالدرس والتحليل من التاريخ والواقع فإننا سنواجه صعوبات

كثيرة .

فهل تكون هذه الحدود جغرافية مثلاً ؟

أم تكون هذه الحدود حضارية ، بمعنى أن تكون مميزات الحضارة عبر التاريخ واشتراكها أو انبثاقها من منبع واحد لشعوب مختلفة هي الحد مثلاً الذي نجمع به الغرب في ناحية والشرق في ناحية أخرى ؟

أم تكون هذه الحدود على أساس الجنس ، فنقول : إن جنسًا معينًا أو أجناسًا بذاتها تكون الغرب وأجناسًا أخرى تكون الشرق ؟

فإذا اتخذنا من الجغرافيا أساسًا وقلنا كما قال مفكرون من الغرب في القرن التاسع عشر : إن الخط الذي يفصل بين الشرق والغرب يمتد رأسيًا من الشمال إلى الجنوب عند انتهاء شرق البحر الأبيض المتوسط وكل ما يقع شرق ذلك فهو الشرق وكل ما يقع غرب ذلك فهو الغرب إذا قلنا هذا فإننا سنرتكب خطأ جسيمًا ، إذ أن مصر وفلسطين وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ستقع كلها جميعًا في الغرب في الوقت الذي ترتبط فيه كل هذه البلاد بالشرق بروابط تاريخية وحضارية فضلاً عن أن جميع مقومات شعوبها شرقية بحتة ولا تشترك مع الغرب في قليل ولا كثير بل هي أبعد ما تكون عن الغرب . كذلك سترتكب نفس الخطأ بالنسبة لأستراليا ونيوزيلندا ، فإنهما بحسب هذا التقسيم هما في الشرق في الوقت الذي لا تربطهما بحضارة الشرق ولا تاريخه ولا مقوماته أية روابط بل هما أبعد ما تكونان عن العقلية الشرقية والبيئة الشرقية .

ولن نستطيع أن نتخذ من الجنس قاعدة أيضًا ، فالصين وهي شعب واحد يضم أجناسًا متعددة ، كذلك ينطبق الأمر على أمريكا وعلى روسيا .

لذلك فلا مخلص لنا إلا بالحضارة التي تكون العقلية وترتكز في مقومات تكون هي بذاتها المميزات الخاصة التي تميز الشرق عن الغرب ، وهنا نستطيع أن نحدد الشرق بكل الشعوب التي تكون حضارتها ويكون تاريخها من حضارة وتاريخ الشرق ، ونستطيع أن نحدد الغرب بنفس هذه الطريقة .

وبهذه الطريقة أيضًا لن تقع في الخطأ ، فإن تونس والجزائر ومراكش تقع في الخريطة ناحية الغرب ولكنها في الحقيقة من الشرق وحضارة وتاريخنا ، وكذلك تقع استراليا .

ونيوزيلندا على الخريطة في صميم الشرق ولكنهما في الحقيقة والواقع من الغرب حضارة وتاريخًا .

وقد أكون أطلت عليك أيها القارئ بهذا اللون من البحث ، ولكنه حيوي جدًا لنا في هذه المرحلة من مراحل وجودنا فنتعلم أن نحدد كل شيء وكما قلت لك في الفصول السابقة وكما تسير الحوادث في العالم اليوم نحن نواجه معركة لا تشترك فيها مصر وحدها وإنما هي معركة بدأت منذ قرون طويلة بين الشرق والغرب ، وهي معركة تحدد مصيرها نهائيًا بقرار تأميم قناة السويس لذلك نجد أن صحافة الغرب وحكام الغرب اليوم في فزع وفي ريب منذ أن أعلن قرار التأميم ، حتى أن هذا الفزع وذلك الرعب اتخذا شكلاً هستيريًا في كل دوائرهم لدرجة أنهم حشدوا الأساطيل وجهزوا الجيوش وأعلنوا سافرًا على العالم أجمع أنهم يعدون للحرب والعدوان بعد أن كانوا يطلقون على أنفسهم العالم الحر الذي يدافع عن الحرية ويدافع عن العدوان !

وكذلك لم تستطع صحافة الغرب أن تكتم الحقيقة فصاحت في جنون تردد الخوف من الشرق وتحرض على الشرق وتبكي وتندب على مصير الغرب

إذا لم يخضع هذا الشرق .

وكما قلت لك في صدر هذا المقال ، فإن نظرة الغرب إلى الشرق تنحصر في مبدأين إما أن يكون أحدهما حذراً ولذلك لابد من أخذ الحيطة والإعداد المستمر للمؤامرة ضد الشرق وإما أن يكون المبدأ الثاني وهو التحريض على إخضاع الشرق وكتم أنفاسه ، وغرض الحرب في الحالتين هو الحصول على موارد الشرق الغني لإسعاد المجتمع الغربي وبنائه ، ومنع هذا الشرق من كل تقدم أو تعليم أو قوة حتى يظل ضعيفًا جاهلاً متأخراً ويظل الغرب يفرض حمايته عليه . . .

وكيف تحدد مصير هذه المعركة بقرار تأميم قناة السويس هذا ما سأسرده فيما يلي .

حقيقة المعركة

قلت في تعريف الشرق وتعريف الغرب : إن نظرة الغرب إلى الشرق تنحصر في مبدأين إما أن يكون أحدهما حذرًا ولذلك لابد من أخذ الحيطة والإعداد المستمر للمؤامرة ضد الشرق ، وإما أن يكون الآخر وهو التحريض على إخضاع الشرق وكتم أنفاسه ، وغرض الغرب في الحالتين هو الحصول على موارد الشرق الغني لإسعاد المجتمع الغربي وبنائه ، ومنع هذا الشرق من كل تقدم أو تعليم أو قوة حتى يظل ضعيفًا جاهلاً متأخرًا وحتى يظل الغرب يفرض حمايته عليه .

فما هي حقيقة هذه المعركة ؟

إننا لكي نبحث في حقيقة هذه المعركة لابد لنا من أن نتناول كل ظاهرة ظهرت من الغرب في معركة قناة السويس بنفس الاهتمام الذي نتناول به الحقائق التاريخية والحضارية ونحن نتقصى حقيقة هذه المعركة التي هي في حقيقتها أيضًا ختام لمأساة سيطرة الغرب على الشرق .

ولقد بدت من الغرب ظاهرة لها أهمية قصوى في هذا البحث .

فإن رئيس وزراء فرنسا صرح في أوج انفعال من انفعالاته أن على المسلمين أن يثقوا في معونة فرنسا وأنها تدخر الخير العميم للإسلام والمسلمين.

ثم لم يلبث المسؤولون في إنجلترا أن عقبوا بمثل هذا التعقيب .

إلا أن صحف الغرب كانت أوضح فقد نادت علانية بأن المعركة معركة الإسلام والعرب ضد الغرب المسيحي ، بل نادت صحف أخرى بأن الشرق

الإسلامي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي .

وهذا تضليل متعمد وقلب للحقائق ، فإن الشرق الذي قام لكي يواجه الغرب متحديًا في معركة قناة السويس ، هذا الشرق يمتد بين الصين شرقًا إلى المحيط الأطلنطي غربًا .

وفي الصين شعب تعداده ستمائة مليون نسمة ، ولكن الصين على بكرة أبيها شعبًا وحكومة وقفت لتتحدى الغرب بالستمائة مليون .

وفي الهند ثلاثمائة وثمانون مليونًا . وقفت على بكرة أبيها شعبًا وحكومة لتتحدى الغرب بالثلاثمائة والثمانين مليونًا .

إذن المسألة ليست مسألة الشرق الإسلامي ، وإنما هي مسألة الشرق الذي خدعه الغرب واستعمره واستنزف دماءه ، هذا الشرق يريد اليوم أن يثأر لنفسه ليس على طريقة الغرب بالعدوان والاغتصاب ، وإنما يريد هذا الشرق أن يعيش حرًا مستقلاً تسيطر كل أمة فيه على مصائرها ، وتستغل كل أمة فيه خيرات أرضها لإسعاد أبنائها ، وتحترم كل أمة فيه استقلال غيرها من أمم الشرق والغرب على السواء .

إن أكثر من ألف وخمسمائة مليون نسمة قامت لتؤيد مصر شعوبًا وحكومات من مختلف الديانات والعقائد بعزم واحد وإيمان واحد .

فقول الغرب إذن أن الشرق الإسلامي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي قول يحمل المغالطة بل التهجم على الواقع .

ولكنه كما قلت ظاهرة من ظواهر هذه المعركة التي كانت لابد أن تقع بين الشرق والغرب لكي ينتهي تاريخ ويبدأ تاريخ .

ولو أن النزاع على قناة السويس كان بين الهند والغرب مثلاً لسمعنا أيضًا من يقول في صحف الغرب أن الشرق الهندوسي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي .

أو لو أن النزاع على قناة السويس كان بين بروما والغرب مثلاً لسمعنا أيضًا من يقول في صحف الغرب أن الشرق البوذي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي .

وما أريد أن أستخلصه من هذه الحقيقة هو أن المعركة بين الشرق والغرب موجودة وقديمة قدم حضارة الشرق وسطحية الغرب .

وأن هذه المعركة موجودة طالما كان الشرق غنيًا بالموارد والكنوز التي تخرج من بطن أرضه وخصب تربته ووفرة محصوله من كل ألوان الثمار .

وأن هذه المعركة ستستمر ما دام فهم الغرب للشرق مبنيًا على أسس كلها خاطئة وجائرة وتتنافى مع كل شرائع الأرض والسماء .

فما هي هذه الأسس الخاطئة الجائرة ، وكيف نشأت وتولدت وصارت إلى ما صارت إليه في معركة قناة السويس من تهديد لأمن البشر وتنكر لكل ما هو حق وعدل وخير ؟

كيف يحاول الغرب أن يستغل الأديان في نشر العدواة والبغضاء وهي كلها تأمر بالمحبة والسلام ؟

هذا ما سأسرده في الفصول القادمة

الأسس الخاطئة

وقع في يدي مقال لجريدة سويسرية هي جريدة «جورنال دي جنيف» نشرت الجريدة في يومي ١١ ، ١٢ من شهر يوليه سنة ١٩٥٦ تحت عنوان «أن الجزاء الحق من جنس العمل» .

وهذا العنوان هو عبارة عن كلمة قالها كليمنصو السياسي الفرنسي وهو يحتضر ، والمقال عبارة عن تحسر على مصير إنجلترا وفرنسا العظيمتين في نظر كاتبه وتحريض لهما من ناحية أخرى ، إلا أن استهلال المقال ونهايته هما اللذان لهما أكبر الاهتمام في نظري إذ أنهما يكونان حلقة من حلقات هذا البحث «الأسس الخاطئة» .

قال الكاتب وهو يستهل مقاله :

«وضعت مصر يدها على قناة السويس ، وكان عملها هذا تهديدًا مباشرًا لأوروبا .

واختتم الكاتب مقاله قائلاً :

ورحنا نشاهد بلادًا كاليونان التي كانت حتى الأمس القريب موالية لأوروبا بل أكثر من ذلك موالية لإنجلترا تؤيد سياسة ناصر .

كما أننا نشاهد دولاً أخري ترفض تحديد موقفها من مسألة قناة السويس بينما يقوم من أعماق آسيا ملايين من الرجال الذين يرزحون تحت عبء سوء التغذية والفقر والذين تجيش في صدورهم إرادة جامحة في نيل استقلالهم بالهجوم على المدنية الأوروبية .

ها نحن نواجه التحدي ، فهل يكون في وسعنا قبوله والدفاع عن تراث المبادئ الإنسانية والمبادئ المسيحية التي لم نعرف كيف نحترمها روحًا ونصًا؟» .

وفي الفصل السابق قلت :

«وما أريد أن أستخلصه من هذه الحقيقة هو أن المعركة بين الشرق والغرب موجودة وقديمة قدم حضارة الشرق وسطحية الغرب ، وأن هذه المعركة ستستمر ما دام فهم الغرب للشرق مبنيًا على أسس كلها خاطئة وجائرة وتتنافى مع كل شرائع الأرض والسماء .

وتساءلت في نهاية المقال :

فما هي هذه الأسس الخاطئة الجائرة ، وكيف نشأت وتولدت وصارت إلى ما صارت إليه في معركة قناة السويس من تهديد لأمن البشر وتنكر لكل ما هو حق وعدل وخير ؟

وكيف يحاول الغرب أن يستغل الأديان في نشر العداوة والبغضاء وهي كلها تأمر بالمحبة والسلام ؟ » .

وهكذا نرى أن مقال الجريدة السويسرية يلقي أضواء صريحة على حقيقة المعركة الدائرة اليوم . فاسترداد مصر لقناة السويس في نظر الكاتب السويسري تهديد مباشر لأوروبا .

ثم هاجم ـ وهذا هو لب المعركة ـ آسيا بملايينها الهائلة وهو ينعي على اليونان عدم ولائها لأوروبا .

وينعي عليهم أنهم أيدوا مصر في ممارسة سيادتها ، ويعتبر أن تصميم

هذه الملايين على نيل استقلالها هجوم على المدنية الأوروبية .

ثم يختم الكاتب مقاله باعتبار كل ذلك تحديًا للمبادىء الإنسانية والمبادىء المسيحية .

وقد تطوع الكاتب السويسري الأوروبي بالرد على تساؤلي في وضوح وجلاء .

فطريقة فهم الغرب للشرق لا تتعدى اعتبار هذا الشرق ملايين من الهوام الجائعة العارية الجاهلة وأن على الغرب أن يتولى أمر الوصاية عليها باسم المبادئ الإنسانية وباسم مبادئ الديانة المسيحية وباسم المدنية الأوروبية .

وفي هذا أيضًا تهجم على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى كل القيم البشرية .

فأما أن للغرب الولاية على رسالة المسيحية وتفسيرها هذا التفسير الذي يتنافى مع مبادئها وأصولها ثم إقحامها في هذه الدعوى الاستعمارية التي تقوم على البغضاء وبث الكراهية بين بني البشر فأمر لا نقبله نحن في الشرق لأننا نعرف المسيحية ومبادئها ، ولأن منا المسيحيين وأرضنا هي مهدها ومن أرضنا خرجت هذه الرسالة إلى أوروبا الجاحدة .

نحن في الشرق على اختلاف دياناتنا وعقائدنا نعرف المسيحية ونحترمها وننزهها عما يريد الغرب أن يلصقه بها .

فالبوذي والهندوكي والمسلم والكونفوشي ومسيحيو الشرق وأقباطه يعرفون المسيحية كما لم يعرفها الغرب أو يريد أن يعرفها .

والغرب في تطفله على المسيحية ينسى أن هؤلاء الملايين الذين يصفهم

بالعراة الجياع في الشرق هم أصحاب الحضارات يوم لم تكن لأوروبا حضارة، وهم أصحاب الديانات يوم لم تكن لأوروبا ديانة وهم أصحاب الحكمة يوم كانت أوروبا تتيه في ظلمات الجهل وتعيش على السحر والخرافات . . . .

والشرق مهد المسيحية يعرف أن المسيحية قامت على مبدأين أولهما هو الإيمان وثانيهما هو المحبة .

فأين هذه المبادئ مما يريد الغرب أن يتوسل به باسم المسيحية ؟

والشرق مهد المسيحية يعرف ويعلم أن المعلم الأكبر لم يكن يفرق بين أبناء البشر بل أن رسالته تنادي إلى يومنا وإلى قيام الساعة بالمحبة بين سائر أبناء البشر .

ولو أن رجلاً ذا بشرة سوداء أو صفراء تقدم للمسيح لكي يشفيه من مرضه أو علته للقى من المسيح ما يلقاه الأبيض على السواء .

فهل يفهم الغرب رسالة المسيح كما نفهمها نحن الشرق ؟

لا ، إنهم في غمرة المدنية المادية التي أحاطت بكل مبادئهم تنكروا للمسيحية روحًا ونصًا .

وهم الذين ابتدعوا رسالة الرجل الأبيض وفرضها على بقية العالمين الذين سموهم ملونين .

وهم الذين يستحلون قتل الأبرياء إذا طالبوا بحق تقرير مصيرهم في بلادهم ، وهم الذين جعلوا من القرصنة شجاعة .

وهم الذين يعتبرون استنزاف خيرات الناس وقهرهم حقوقًا مشروعة،

وهذه نقطة أساسية في الخلاف بين الشرق والغرب .

فنحن في الشرق نعتبر الأديان ملجأ روحيًا تصفو فيه نفوسنا من أكدار هذه الحياة .

وهم في الغرب يريدون أن يستغلوا الدين في أساليبهم لقهر الناس وفرض إرادتهم وسيطرتهم .

ونحن في الشرق نعتبر المسيحية رسالة عالمية سمحة لا تختلف في مبادئها مع سائر دياناتنا ومعتقداتنا لأنها كلها تحض على المحبة والإخاء والسلام .

وهم في الغرب يعتبرون أنفسهم أولياء على المسيحية ويعتبرون كل ما عداها جهالة وخرافة وبربرية .

وهكذا يتورطون في الغرب وهم يقحمون المبادىء المسيحية في أطماعهم الدنيوية ونسوا أننا في الشرق مهد المسيحية وأصل الأديان .

مدنية الغرب

لقد كانت معركة قناة السويس ميدانًا التقى فيه الشرق والغرب لأول مرة منذ قرون كان الغرب فيها يستعبد الشرق ، وظن الغرب أن لا قائمة ستقوم للشرق ، لذلك رأينا أن الغرب يفقد أعصابه لأول مرة في تاريخه الحديث على صورة وصفها معلق أمريكي أبلغ وصف حين قال :

« إن بريطانيا تتصرف لأول مرة كدولة لا تثق في نفسها ، وكان مشهورًا عن بريطانيا طوال قرون الاستعمار السابقة أنها تعتمد على هيبة كانت تحكم بها الملايين وترهبهم من غير أن ترسل جنديًا بريطانيًا واحدًا » .

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل ارتفعت الصيحات في أوروبا تنادي بأن الحضارة الغربية في خطر وأن زعماء العرب وهم الحراس الأمناء على هذا التراث الإنساني يجب أن يحافظوا على هذه الحضارة وذلك التراث الذي يهدده الشرق اليوم في صحوته التحريرية .

وكأن حضارة الغرب وتراثها الذي تخاف عليه أوروبا وأمريكا لا تعيش إلا على أشلاء الشرق ، ولا تزدهر إلا إذا امتصت دماء الشرق ، ولكنها هي الحقيقة المخجلة .

فحضارة الغرب اليوم ليست حضارة بمعناها العلمي أو النظري وإنما هي مدنية ، وفرق كبير بين الحضارة والمدنية .

فالحضارة تقوم أول ما تقوم على مقومات معنوية وروحية قبل أن يكون لها مقومات مادية ، لذلك نرى أن طابعها لا يكتفي بالمظهر وإنما يعتمد أول ما يعتمد على الجوهر .

والمدنية لا تعرف المقومات المعنوية أو الروحية على الإطلاق ، وإنما هي تتناول جوانب المادية البحتة في حياة الفرد والمجتمع التي لا تعدو أن تكون مظهرًا ، كأن تحيل حياته كلها ميكانيكية مثلاً بالأزرار والآلات ، وهي لذلك لا تقيم وزنًا بل لا تعرف الجوهر في حياة الإنسان .

من أجل ذلك كانت الحضارة ولا تزال تعني أول ما تعني بالقيم الإنسانية العليا .

أما المدنية فإنها تعتبر القيم الإنسانية من مقومات تقدم البشرية .

وعلى هذا القياس ، ومما نراه اليوم نستطيع أن نعرف الفرق بين الحضارة والمدنية ونستطيع أن نعرف ما يسمونه حضارة الغرب بمدنية الغرب .

وهنا يتضح خلاف آخر بين عقليتيْ الشرق والغرب.

فالغرب يعتقد أن مدنيته الحالية أن هي إلا حضارة هو الولي عليها ، وأن من أخص رسالاته أن يقهر الشعوب في الشرق على قبول هذه الحضارة الغربية في أشكال يحدد هو مفهومها .

فالغرب حين يدخل مثلاً نظامه الديموقراطي في شعب من شعوب الشرق فإنه لا يدخل ما يطبقه هو في بلاده وإنما يفرض على هذه الشعوب النظام الذي يريد لكي يحقق له السيطرة والتحكم .

ثم يلصق بهذا النظام اسم الديموقراطية وينسبه إلى الحضارة الغربية الجديدة.

والغرب حين يدخل العلوم إلى بلد من بلدان الشرق يكون قد أُبتلي باستعمار غربي فإن هذه العلوم لا تتعدى مراحل ساذجة أولية لأن مفهوم الحضارة الغربية عند الغرب هو أن لا يتعلم الشرق من علوم الغرب إلا

قشورها لكي تظل للرجل الأبيض السيادة والهيمنة عن طريق العلم .

ولا زالت شعوب كثيرة من التي ابتليت بالاستعمار تئن إلى اليوم لأنه لا يوجد فيها طبيب أو مهندس فهذه المهن في عرف الحضارة الغربية مقصورة على الرجل الأبيض الممتاز وهي سبيله إلى السيطرة والسيادة .

وهناك مثل آخر على ذلك ، فإن بريطانيا تستقدم بعثات عسكرية من دول كثيرة في الشرق والغرب ، وتصادف أن كان بعض الضباط المصريين في بعثة من هذه البعثات سنة ١٩٥٠ وعندما عادوا كانوا يروون أن محاضرات بذاتها كانت محرمة عليهم هم وبعثات بقية البلاد الشرقية لأن في هذه المحاضرات أسرارًا لا يجوز لغير الإنجليز والأوروبيين أن يعرفوها .

أي الرجل الأبيض مرة أخرى ، هذا هو مثل من مفهوم الحضارة أو على الأصح المدنية عند الغرب .

أما مفهوم الحضارة عند الشرق فإنه يختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

فالشرق يعتز بأن أولى الحضارات التي عرفتها البشرية كانت في أرضه .

الحضارة الصينية التي أخرجت الحكمة والنور ، والحضارة الفرعونية التي أدهشت وتدهش العالم إلى اليوم بهذا التفوق في العلوم والفنون .

والحضارة الهندية التي تعمقت منذ القدم في أغوار الروح والمادة وأخرجت للناس حكمة وعلومًا وفنونًا لا تزال تراثًا مجيدًا إلى يومنا وإلى يوم الساعة .

والشرق يفهم الحضارة على أنها قيم قبل أن تكون مادة ، فقد رأينا أن الحضارة الصينية والمصرية والهندية أخرجت سلوكًا وآدابًا وقدست الأسرة ونظمت علاقة أفرادها ببعض وبالمجتمع وبالحاكم وتفوقت الحضارة الصينية

في تعريف الحكومة وواجبها والرعية وما يجب أن تكون عليه آدابها .

ولكن هذه الحضارات لم تسفر عن قيم إنسانية فقط ، وإنما أسفرت أيضًا عن علوم وفنون وهندسة وبنايات لازالت إلى اليوم شاهدًا على أصالة هذه الحضارات وتفوقها منذ آلاف السنين .

والشرق يفهم الحضارة على أنها بناء وتعايش بين الجميع لخير الجميع .

لذلك فالشرق يعتز بحضارته ويرفض مدنية الغرب .

ولذلك أيضًا صحا الشرق صحوة جبارة حين نفض عن نفسه غبار الاستعمار والسيطرة الغربية يريد أن يعوض ما فاته من تأخر لأن جذوة الحضارة جزء من دمائه وكيانه وهي إن كانت قد خبت بعض الوقت إلا أنها كانت مشتعلة في الداخل لأنها حضارة أصلية ذات جذور لا يمكن أن تموت .

ولذلك أيضًا فزع الغرب لأن صحوة الشرق كانت قوية ورهيبة وهو الذي اعتقد أنه قد استحوذ على الشرق ماديًا ومعنويًا .

وفزع الغرب أيضًا لأنه وجد أنه يواجه مئات الملايين فجأة من الشرق الذي استفاق وليست بينه وبين هذه الملايين التي تفوق الألف والخمسمائة المليون من ذكريات إلا المرارة والحقد والألم والشكوك .

وفزع الغرب أيضًا لأنه وجد نفسه بمدنيته التي قامت على الحديد والنار والقرصنة والقوة الباغية يواجه شعوبًا ذات حضارة أصيلة لا مدنية زائفة .

شعوب صممت على أن تعيش كريمة وعلى أن تأخذ من المدنية الغربية ما يحفظ عليها قوتها المعنوية .

وستبقى المعركة قائمة بين الشرق والغرب حتى تنتصر الحضارة على المدنية أي حتى تنتصر القيم العليا على أساليب القهر المادية .

أخي في الشرق

أخي في الشرق

في الهند وفي الصين

وأندونيسيا

وفي بورما والملايو

وفي سيلان والأفغان

وإيران وباكستان

أكتب لك هذه الكمات يا أخي وأنا جالس على ضفة القناة

وقد قدمت لهذا المكان لأنشد الراحة

إنني اليوم في أجازة

إنه مكان حبيب إلى قلبك بقدر ما هو حبيب إلى قلبي

والسلام يرفرف هنا

على ضفاف القناة

أخي في الشرق

إن مصر كلها تحرس اليوم القناة

فهي الطريق إليك يا أخي

إنني أحمل السلاح وأنا في الأجازة

لكي أؤمن الطريق إليك يا أخي

ولكي يظل السلام

يرفرف على ضفاف القناة

وهم يريدون الحرب

لقد عرفتهم يا أخي

وعرفتهم أرضك المقدسة في الصين

أشرارًا وأنجاسًا

وعرفتهم جبالك ووديانك السمحة في أندونيسيا

لصوص الأرض والمال

وخبرتهم أرضك الطيبة الوادعة في الهند

وكم سلبوك من مال

وقاتلتهم جبالك وفرسانك في الأفغان

زهاء القرن شجعانا

وضاقت بهم الدنيا وأنهارك والأدغال في بورما

وقد سرقوك أجيالاً

أخي في الشرق

في مصر عرفناهم

بلوناهم

طردناهم

وإن عادوا شفينا الغليل

للأحرار في الهند

وللأحرار في الصين

وللأحرار في بورما

وللأحرار في البونشاك

سنسقيهم بسقياهم

وسنؤدب شقواهم

لكي نؤمن الطريق إليك يا أخي

ولكي يظل السلام

يرفرف على ضفاف القناة

« من على ضفاف القناة »

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر ـ منية سمنود ـ دقهلية
ت : ٠٥٠٦٤٩٢١٧٨ محمول : ٠١٢٧٥١١٠٠٣